غياب المقام وأثره في القاعدة النحوية

الدكتورة

حنان بنت أحمد راجحي

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية ، تخصص :النحو والصرف، كلية الآداب والعلوم الإنسانية فرع كليات البنات – جامعة الملك عبد العزيز – جدة- المملكة العربية السعودية.

مستخلص البحث : يتناول البحث قضية اختلاف النحاة في توجيه الحكم النحوي للنص اللغوي ، ويسلط الضوء على المقام المُتَعَمّد ، وغير المُتَعَمّد في إطار العناصر الاجتماعية ؛ كونها من أبرز القرائن المعينة على فهم النص فهما صحيحاً يكشف عن المراد منه ،وقد عرض البحث لتعريف المقام ،وظاهرة التنغيم ، وبيان أهميتهما، وأنواعهما، وأن للتنغيم ،والمحسوسات والمجردات، دورًا في الكشف عن تفاصيل المقام وعناصره الخارجية، وبين أن القدماء اعتنوا به قبل المحدثين ،وأنزلوه منزلته بإزاء القرائن الأخرى، وأنه نتاج عربي أصيل ،وليس من نتاج الدراسات اللسانية الحديثة ،وقد بين ذلك كله بالشواهد المطروحة في الكتب التي وقعت في متناول الباحثة ،وخلص البحث إلى أن للمقام المُتَعَمّد ،وغير المُتَعَمّد أثراً بارزاً في ترجيح المحتملات، وبيان المجملات، ودفع ما يتوهم أنه تعارض بين النصوص، وإن كان هذا البحث لم يتسع من ذلك كله إلا إلى إشارات.

مقدمة :الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي النبي العربي الأمين، و على صحابه الكرام، ومن تبعهم بإحسان، وبعد.

كانت النصوص اللغوية لمدة طويلة منطوقة قبل أن يشرع النحويون و اللغويون في تدوينها في كتبهم ، وحين دونوها كتابة ،غاب عنهم ،وعن من يطلع على كتبهم ،المقام الذي قيلت فيه ، وغاب عنهم العنصر الاجتماعي له المتمثل في الموقف الكلامي بعناصره، والظروف المحيطة به كالمتكلم ،والمستمع ،وهيئة كل منهما ، وحركتهما ،ونبرة صوتهما ...إلخ . يقول ابن جني عن اشتقاق الألفاظ :" الألفاظ المنقولة إلينا قد كانت لها أسباب لم نشاهدها ،ولم ندر ما حديثها "،ومثل له بقولهم: رفع عقيرته إذا رفع صوته" قال له أبو بكر: فلو ذهبنا نشتق لقولهم:(ع ق ر) من معنى الصوت لبعد الأمر جدا ،وإنما هو أن رجلا قطعت إحدى رجليه فرفعها ،ووضعها على

الأخرى ثم نادى ،وصرخ بأعلى صوته ،فقال الناس: رفع عقيرته أي رجله المعقورة ، قال أبو بكر فقال أبو إسحاق: لست أدفع هذا ،ولذلك قال سيبويه في نحو من هذا :أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر يعنى ما نحن عليه من مشاهدة الأحوال والأوائل ".[1] بالتالي أدى ذلك الجهل بالمقام إلى وجود تعارض بين تراكيب بعض النصوص اللغوية مع القواعد النحوية ،هذا التعارض دفعهم إلى إيجاد طرق للتوفيق بينهما ، تتمثل في : التأويل ، والتقدير ،والحذف ،والاستتار ، " فالتأويل ، والتقدير ،والحذف ،والاستتار نتيجة واضحة من نتائج العنصر الاجتماعي في اللغة ، وسلخ اللغة من الموقف الذي تقوم به الحركة ،والإشارة والنظرة ،والانفعال والهدوء ، وتغير الوجه ،والنبر والتنغيم ،وتضافر القرائن ،وغير ذلك من ملابسات الحديث اللغوي بما لا يقوم به الكلام نفسه في الفهم والإفهام ، وقد اعتمد النحاة على التأويل والتقدير في محاولة لإكمال النص ذهنياً ،بعد فقدان العنصر الاجتماعي الذي لا يفصل الحديث اللغوي عن موقفه".[2]خاصة أن النص نسيج متكامل يتداخَل فيه إيقاع الذات ،وإيقاع البيئة ،والمجتمع والثقافة. وإلى ذلك أشار ابن جني يقوله :" فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو ،وابن أبي إسحاق ويونس ،وعيسى بن عمر ،والخليل ،وسيبويه ،وأبو الحسن ،وأبو زيد ،وخلف الأحمر ،والأصمعي ،ومن في الطبقة والوقت من علماء البلدين وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها ،وتقصد له من أغراضها ألا تستفيد بتلك المشاهدة ،وذلك الحضور مالا تؤديه الحكايات ولا تضبطه الروايات، فتضطر إلى قصود العرب وغوامض ما في أنفسها حتى لو حلف منهم حالف على

([1])انظر أبا الفتح عثمان بن جني ،الخصائص ، تحقيق : محمد النجار ، [د.ط] (بيروت: عالم الكتب ،١٩٩٤م)، ج١/ص٢٤٨.

([2])انظر حماسة عبد اللطيف ، الضرورة الشعرية، القاهرة ،ط١، ([د.م] :دار العلوم ، ١٩٧٩م) ، ص١٤ .

غرض دلته عليه إشارة لا عبارة لكان عند نفسه ،وعند جميع من يحضر حاله صادقا فيه غير متهم الرأي و النحيزة ،والعقل فهذا حديث ما غاب عنا فلم ينقل إلينا ،وكأنه حاضر معنا مناج لنا ".[٣]و يوضح ابن جني في موضع آخر مدى أهمية الحال المشاهدة ، وكيف يؤثر غيابها على الكلام المنطوق : " وبعد فالحمالون ، والحماميون ،والساسة ،والوقادون ،ومن يليهم ،ويعتد منهم يستوضحون من مشاهدة الأحوال مالا يحصله أبو عمرو من شعر الفرزدق إذ أخبر به عنه ،ولم يحضره ينشده ،أو لا تعلم أن الإنسان إذا عناه أمر فأراد أن يخاطب به صاحبه وينعم تصويره له في نفسه استعطفه ليقبل عليه فيقول له : يا فلان أين أنت أرني وجهك ؟أقبل على أحدثك .أما أنت حاضر يا هناه؟ فإذا أقبل عليه ،وأصغى إليه ،اندفع يحدثه ،أو يأمره، أو ينهاه ،أو نحو ذلك ،فلو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين ،مجزئا عنه لما تكلف القائل ،ولا كلف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه وعلى ذلك قال:

العين تبدى الذي في نفس صاحبها

من العداوة أو ود إذا كانا

...أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه ،وجعلها دليلا على ما في النفوس ،وعلى ذلك قالوا :رب إشارة أبلغ من عبارة ،وحكاية الكتاب من هذا الحديث، وهي قوله: ألا تا و بلى فا [٤]،وقال لي بعض مشايخنا – رحمه الله – :أنا لا أحسن أن أكلم إنسانا في الظلمة" .[٥] وقد عقب سعيد الأفغاني على قول ابن جني هذا بقوله: "ونحن نعرف بركة هذا

(٣)انظر ابن جني ،الخصائص ،مرجع سابق، ج١/ص٢٤٨ .

(٤)قال سيبويه : "فإنما أرادوا ألا تفعل وبلى فافعل، ولكنه قطع ". انظر أبا البشر سيبويه ، كتاب سيبويه ،تحقيق : عبد السلام هارون ،ط١(بيروت: دار الجيل، [د.ت])،ج٣/ص٣٢١.

(٥) ابن جني ،الخصائص الخصائص ، مرجع سابق ، ج١/ص٢٤٦ ، ص٢٤٧.

الأفغاني على قول ابن جني هذا بقوله: "ونحن نعرف بركة هذا الغوص في كثير من النصوص التي يختلف فيها العلماء لورودها مجرّدة من الإشارة إلى لهجة المتكلّم أو حاله، ترد الجملة عند العرب فيجعلها بعضهم تقريراً ،وبعضهم استفهاماً حُذفت أداته، وبعضهم استفهاماً أُريد به الإنكار والتهكم... الخ ولو ورد مع النّص حال المتكلّم لا نقطع الخلاف".[٦]

أهمية الموضوع : لا شك أن حضور الموقف ومشاهدة الحال ، والنظر إلى النص في إطار موقفه، ومقام كلامه ، وتأمُّل معناه في سياقاته المتعدِّدة التي تعدّ الأبعاد الفاعلة في تفسير النص ،وتكشف عن العلاقات المتداخِلَة في لغته من أبرز القواعد والقرائن في تقنين القواعد النحوية المناسبة ، لأن اللغة بطبيعتها ظاهرة اجتماعية[٧] ، وهي بحق تستحق البحث فيها من هذه الناحية، وتطبيقها على ما في كتب النحو من شواهد تتعلق بهذا الجانب ، وهو ما سنعرضه في هذا البحث ، في محاولة للإجابة عن السؤال الذي يطرح نفسه : هل كان نحاتنا حين قننوا القواعد في غفلة عن استحضار واقع العربي وهو يتكلم ، أم كانوا عكس ذلك ؟

ينبغي الإشارة إلى قلة المراجع – على حد علمي – التي خاضت في هذا الموضوع ، فقد أشار إليه بعض القدماء في كتبهم ضمن نصوصهم دون تحديد خاص به، و في العصر الحديث وجدت إشارات بسيطة إليه في الكتب المصنفة تحت علم اللغة والدلالة واللسانيات ،وقد تأثروا فيها بدراسات الغرب

---

(٦)انظر سعيد الأفغاني ، في أصول النحو، [د.ط] ([د.م]:مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية ،١٩٩٤م) ، ص ٩٤.

(٧)انظر محمود رضوان، نظرات في اللغة ، ط١ (بني غازي: [د.ن] ، ١٩٧٦م) ، ص ٤٦٤.

للسياق في إطار الحال ، وخاصة عند فيرث، و بعضها يشير إلى ما أورده ابن جني في كتابه الخصائص.[٨]

و قد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يقع في قسمين تسبقهما مقدمة ، و تقفوهما خاتمة ذكر فيها أهم النتائج والتوصيات مع فهرس المصادر والمراجع :

- القسم الأول : الدراسة النظرية ، وتشمل : المبحث الأول :" المقام "،ويضم : المطلب الأول :تعريف المقام ، المطلب الثاني: أهمية المقام ، المطلب الثالث: عناصر المقام: الموقف ، المتكلم :" ٢-١ لغة الجسد .٢-٢ أهمية لغة الجسد " ،المخاطب. المبحث الثاني : "التنغيم" ،ويضم: المطلب الأول : تعريف التنغيم ،المطلب الثاني: أهمية التنغيم المطلب الثالث: "أنواع التنغيم" .

- القسم الثاني : الدراسة التطبيقية، وتشمل :

- المبحث الأول: المقام المُتَعَمّد من خلال أثر ظاهرة التنغيم في القاعدة النحوية

- المبحث الثاني : المقام غير المُتَعَمّد من خلال أثر المحسوسات ، و المجردات في القاعدة النحوية : أ/ المقام من خلال أثر المحسوسات في

---

(٨)انظر أحمد مختار ، علم الدلالة،ط٥ (القاهرة :عالم الكتب ، ١٩٨٨ م)،ص٦٧-ص٧٨،و تمام حسان، مناهج البحث في اللغة ،ط ٢ (الدار البيضاء: دار الثقافة ، ١٩٧٤ م) ، ص ٢٥١ ، و ردة الله الطلحي ، دلالة السياق، ط ١ ، (مكة المكرمة : معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى ، سلسلة الرسائل الموصى بطبعها رقم (٣٣) ، ١٤٢٤هـ) ، ص٤١،ص٥٥، و كمال بشر ، علم اللغة الاجتماعي"مدخل" ، [د.ط] ([د.م] : دار الثقافة العربية ، (١٩٩٤م) ،ص ٨٧.

القاعدة النحوية، ويشمل : أثر السمع، البصر، التذوق، الشم، اللمس ب/المقام من خلال أثر المجردات في القاعدة النحوية.

و لسنا نحاول التوسع في تفاصيل هذا الجانب ؛ لأن المقام يقتضينا الاكتفاء بالصورة المجملة عن الإسهاب ،وحسبنا أن نلفت الأنظار إلى أهمية معاينة المقام في القاعدة النحوية ،ومدى أثره في توجيه القاعدة النحوي في إيجاز بسيط ، يستحق بعد ذلك التوسع فيه ،والحفاوة به. وأخيرًا هذا جهد المقل، فما كان من صواب فمن الله وحده، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله من كل زلل.

القسم الأول : الدراسة النظرية ، ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : المقام، ويشتمل على ثلاثة مطالب ، الأول :تعريف المقام، الثاني: أهمية المقام، الثالث: عناصر المقام.

فهم النصوص يعتمد على المعنى واللفظ في ضوء المقام الذي ترد فيه ، ومقامات الكلام مختلفة فعند السكاكيَ مثلاً مقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ، ويرجع ارتفاع شأن الكلام في باب الحسن ،والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادقة الكلام لما يليق به ،وهو الذي يسمى بمقتضى الحال .[٩]

المطلب الأول :تعريف المقام : المقام اسم ، أصله مقوم على وزن (مَفْعَل) من قام يقوم ، نُقلت حركة الواو إلى الهمزة ،فتحركت الواو في الأصل

([٩])انظر أبا يعقوب يوسف السكاكي ، مفتاح العلوم ،[د.ط] (بغداد : مطبعة دار الرسالة ، ١٩٨٢م) ، ص ١٦٨- ص ١٦٩ .

،وانفتح ما قبلها ،وقلبت ألفا. [١٠]و في اللغة :الدلالة على الموضع أو المكان الذي يصدر عنه الناس في أقوالهم وأحوالهم وتصرفاتهم.[١١]و قد شاع منذ القدم العبارة القائلة :" لكل مقام مقال" التي شاعت ، واستمرت إلى عصرنا [١٢] ، وأصبحت مثالاً ، وقد ورد معناها بأنه يطلق ،و يراد به أن لكل أمر، أو فعل ،أو كلام موضعا لا يوضع في غيره. [١٣]

و قد وردت هذه الكلمة في شعر الشعراء مما يدل على معرفتهم لها ، كقول الشاعر:

ولا تَعْجَلَنّي هداك المليكُ

فإنّ لكلِّ مَقامٍ مقالا[١٤]

([١٠])انظر ابن هشام الأنصاري ، أوضح المسالك ، تحقيق : محمد محيي الدين ، ط٥ (بيروت : دار الجيل ، ١٩٧٩م) ، ج٤/ص٤٠٢ ، و جلال الدين السيوطي ، همع الهوامع ، تحقيق : عبد الحميد هنداويَ، [د.ط] (مصر : لمكتبة التوفيقية ، [د.ت]) ، ج٣/ص٣٧٩.

([١١])انظر محمد الخوجة، محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية ، [د.ط] ([د.م] : الدار الشامية ،٢٠٠٤م) ، ج٢/ص٢٣٥.

([١٢])انظر محمد المقدسي ، ذخيرة الحفاظ ،تحقيق : عبد الرحمن الفريوائي ، ط١ ، (الرياض: دار السلف ، ١٩٩٦م) ، ج٤/ص١٩٥٤، و أبا الفضل الميداني ، مجمع الأمثال ، تحقيق : محمد محيى الدين ،[د.ط]،(بيروت :دار المعرفة،[د.ت]) ، ج٢/ص١٩٨ ، و أحمد العامري ، والجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث ، تحقيق : بكر عبد الله ، ط١ ، (الرياض: دار الراية ، ١٤١٢ هـ) ، ج١/ص١٨١ ، و محمد الشافعي ، أسنى المطالب في أحاديث مختلفة ، تحقيق : مصطفى عبد القادر ،ط ١ ، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م) ، ج١/ص٢٢٩.

([١٣])انظر الميداني ، مجمع الأمثال ، مرجع سابق ، ج٢/ص١٩٨ .

وكقول الحطيئة يخاطب عمر –رضي الله عنه– :

تعَـــــــنَّنْ علـــــــيَّ هَـــــــداكَ المَليـــــــكُ

فـــــــإنّ لكـــــــلِّ مَقـــــــامٍ مَقـــــــالا [١٥]

و لا يوجد تعريف محدد للمقام في كتب القدماء ، وجل ما ذكر عنه ما ورد في كلمة (قوم): " القاف والواو والميم أصلان صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناس، وربما استعير في غيرهم، والآخر على انتصاب أو عزم".[١٦] وقد يكون بمعنى موضع القيام ،ومحله[١٧] ،ويطلق على المكان المعدود لأمر عظيم[١٨]، كما في قوله تعالى:{وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً} [١٩]

([١٤]) انظر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، العقد الفريد ،ط٣، (بيروت : دار إحياء التراث العربي،١٩٩٩م)،ج٥/ص٤٤٢.

([١٥]) انظر محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي ، لسان العرب ،[د.ط] (يروت : دار صادر [د.ت])، ج١١/ص٥٧٣.

([١٦])انظر أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام هارون ،ط ٢ (بيروت : دار الجيل ،١٩٩٩م) ، ج٥/ص٤٣ .

([١٧])انظر الأفريقي ، لسان العرب ،مرجع سابق ، ج١٢/ص٤٩٨.

([١٨])انظر محمود بن عمر الزمخشري ، أساس البلاغة ، [د.ط] ([د.م] : دار الفكر ، ١٩٧٩م) ، ج١/ص٥٢٨ .

([١٩])سورة الإسراء، الآية : ٧٩.

و أهل البيان استخدموا في كتبهم عبارة (لكل مقام مقال) في ثنايا حديثهم عن المعنى واللفظ ، وقد ذكروا تعريف النظم في اصطلاحهم ، وهو قريب من معنى (المقام) ، فقال الجرجاني: " النظم : تآخي معاني النحو فيما بين الكلم ،على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام". [٢٠]و النظم هو دلالة التركيب على القصد و إظهار المعنى ،وهو ما يفاضل به في درجات الإبداع [٢١] .

و قد أشار الدكتور تمام حسان إلى ذلك بقوله:" ولعل أذكى محاولة لتفسير العلاقات السياقية في تاريخ التراث العربي إلى الآن هي ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني صاحب مصطلح (التعليق)، وقد كتب دراسته الجادة في كتابه: (دلائل الإعجاز)، تحت عنوان: (النظم) ".[٢٢]

وفي كتب علم اللغة واللسانيات الحديثة جعل اللغويون المحدثون المقام يشمل مجموع الناس المشاركين في الكلام، من حيث الجنس ، والعمر ، والألفة والتربية، والانتماء الاجتماعي ،والثقافي ،والمهني، والإيحاءات والإشارات العضويّة التي تصدر منهم وغير ذلك ،و يشمل ظروف الزمان والمكان التي يؤدّى بها الحدث الكلامي وتؤثر فيه، والعلاقات الاجتماعية

([٢٠])انظر عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، تحقيق : التنجي ،ط١ (بيروت : دار الكتاب العربي ،١٩٩٥م) ، ص ٨٨.

([٢١])انظر الشاهد البوشيخي ،مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين ، (الكويت : دار القلم ، ط ٢ ، ١٩٩٥م)، وعباس أحمد هواش ، زيادة اللفظ لزيادة المعنى وأثرها في الكلمة والجملة العربيتين ، (بيروت:الجامعة الأمريكية ،١٩٩٩م) ، ص ١٤ ،و محمد خفاجي وآخرون ، الأسلوبية والبيان العربي ،([د.م] : الدار المصرية اللبنانية ،[د.ط] ،[د.ت]) .

([٢٢])انظر حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها ، مرجع سابق،ص١٨٦.

والسياسية والدينية والتاريخية والفكرية، والعناصر الأخرى التي تؤثر في الكلام وفي غايته، وبالتالي هو جملة العناصر غير اللغويّة المكوّنة للموقف الكلامي [٢٣].و المقام هو ما يطلق عليه بالحال ،و لسان الحال، وهو ما يعرف بالمشاهدة أو مشاهدة الوجوه ، وهو الدليل، و هو القرينة، و هو الموقف، وهو الإشارة ، وقد يسمى شهادة [٢٤]،و هو السياق[٢٥] ، و سياق الموقف هو ما جرى في إطاره التفاهم بين شخصين، ويضم ذلك الإطار في محيطه زمن الحدث اللغوي، ومكانها والعلاقة بين المتكلم والسامع ،والقيم المشتركة بينهما والكلام السابق للمحادثة "[٢٦].

([٢٣]) انظر المرجع السابق ص٣٣٧، ٣٥١، ومحمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة " مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي " ،ط١ (القاهرة:[د.ن] ، ١٩٨٣م)، ص١١٤- ١١٥، و هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب،ط١ (بيروت، دار الغصون ،١٩٨٨م)، ١٨٨،وما بعدها.

([٢٤])انظر ابن جني ، الخصائص ، مرجع سابق ، ج١/ص٢٤٦ ،ص٢٤٧ ، ٢٤٨ ،و الطلحي ، دلالة السياق، مرجع سابق ،ص ٤٢ ، وأحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني ،كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : عبد الرحمن النجدي ، ط٢([د.م] :مكتبة ابن تيمية ،[د.ت])،ج١٢/ص٤٠٦.

([٢٥]) يعد " السياق " في الدراسات اللغوية الحديثة نظرية دلالية ،وهو مصطلح يصعب وضع تعريف دقيق ، ومحدد له . انظر محمد يوسف حبلص ، البحث الدلالي عند الأصوليين ،ط١ ، ([د.م]:مكتبة عالم الكتب ، ١٩٩١م)،ص ٢٨، و الطلحي ، دلالة السياق، مرجع سابق ، ص ٥٠.

([٢٦]) انظر محمود السعران ، علم اللغة " مقدمة للقارئ العربي"، [د.ط] ([د.م] : دار الفكر العربي ،[د.ت])، ص٢٥٩،و محمد الخولي ، معجم علم اللغة النظري، ط١ ([د.م] :مكتبة لبنان ، ١٩٨٢ م)، ص ٣٣٩.

المطلب الثاني: أهمية المقام :لاشك أن غياب المقام قد يؤدي إلى تعدد معنى النص المراد ،و بالتالي تعدد احتمالات القصد منه، فالمقام هو البيئة التي تنتظم فيها عناصر النص اللغوي الداخلية و الخارجية ، و يمكن بمعرفته أن نجد فيه كشفاً لغموض ما غاب عنا ،و تفسيراً لكثير من العمليات التي تصاحب الموقف الكلامي ، وعناصره المتمثلة في المتكلم والسامع ،والظروف الاجتماعية والثقافية المصاحبة له ، وبالتالي نستطيع من خلال معرفتها استحضار ما غاب عنا في إطاريه الزماني والمكاني ،و فهم ما يريد النص اللغوي إيصاله، و صرف ما يحتمل الوقوع فيه من التباس أو إبهام أو غموض في الدلالة بسبب هذه الظواهر .

و كل زمان له ألفاظ خاصة به ،يختلف الناس في فهمها ، لأن المعنى يختلف باختلاف الناس، من حيث الوضوح والغموض، أو الاستحسان والاستهجان، أو ما يحدث من خلاف في تحديد المعنى، كما في تحديد مقصد النص، وفي تعدّد المعاني التي يحتملها، أو التعدّد والخلاف في فهم المعاني الجزئية في بعض العبارات التي تُشكل النص، أو غير ذلك " ومن لم يعرف لغة الصحابة التى كانوا يتخاطبون بها ،ويخاطبهم بها النبى وعادتهم في الكلام ،وإلا حرّف الكلم عن مواضعه ،فإن كثيرا من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعادتهم في الألفاظ ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله، أو الصحابة فيظن أن مراد الله أو رسوله ،أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه ،ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك ،وهذا واقع لطوائف من الناس من أهل الكلام والفقه والنحو والعامة وغيرهم ".[٢٧] وقد أشار ابن جني إلى غياب المقام ،وأثره في المعنى بقوله : فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب، ووجوهها وتضطر إلى

([٢٧]) انظر الحراني ، كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، مرجع سابق ، ج١/ص٢٤٣.

معرفته من أغراضها ،وقصودها من استخفافها شيئا ،أو استثقاله وتقبلـــه أو إنكاره والأنس به ،أو الاستيحاش منه والرضا به أو التعجب من قائله ،وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود بل الحالفة على ما في النفوس ألا ترى إلى قوله:

تقـــــــول وصـــــــكت وجههـــــــا بيمينهـــــــا

أبعلـــــــي هـــــــذا بـــــــالرحى المتقـــــــاعس

فلو قال حاكيا عنها :أبعلي هذا بالرحى المتقاعس ،مـــن غير أن يذكر صك الوجه لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة ،لكنه لما حكى الحال فقال: وصكت وجهها علم بذلك قوة إنكارها، وتعاظم الصورة لهـــا هـــذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها ،ولو شاهدتها لكنت بهـــا أعـــرف ولعظم الحال في نفس تلك المرأة.[٢٨] فمعرفة المقام اللغوي هو المفتاح لكثير من فوارق العبارات المتشابهة ، فكلّ مَقام للألفاظ يتطلب ضربا من المعاني المناسبة ،وإلا لما اشتهرت العبارة القائلة "لكل مقام مقـــال"." أمـــا الـــسياق والقرائن، فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامـــه فهـــي المرشـــدة لبيـــان المجملات وتعيين المحتملات " [٢٩] ،وكلما كان وصف المقام أكثر تفصيلاً كان المعنى أكثر وضوحاً. إن متابعة أعمال القدماء متابعة متأنية ،ودقيقة تكـــشف

([٢٨]) ابن جني ، الخصائص ، مرجع سابق ،ج١/ص٢٤٥.

([٢٩])انظر العسقلاني ، أحمد بن حجر ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، تحقيق : محب الدين الخطيب ،[د.ط] (بيروت: دار المعرفة، [د.ت) ، ج٤/ص١٨٤ – ص ١٨٥ ، و أبا البقاء أيوب الكفومي ، الكليات ، تحقيق : عدنان درويش ،و محمد المصري ،[د.ط] (بيروت: مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٨م) ، ج١/ص٦٠١ ، و محمد الشوكاني ، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار ،[د.ط] ، بيروت : دار الجيل (١٩٧٣م) ، ج٤/ص٣٠٦.

عن وجود عبارات تدل على إدراكهم لأهمية المقام والحال المشاهدة في استحضار ومعرفة المقصود ، وأن راوي الكلام أدرى بغيره، من ذلك قولهم: (نطقت الحال والحال ناطقة) فإنه يقدر تشبيه دلالة الحال بنطق الناطق في إيضاح المعاني ،وإيصاله إلى الذهن ثم يدخل الدلالة ،في جنس النطق بالتأويل المذكور فيستعار لها لفظ النطق .[٣٠] وقولهم : وخبرتني أسارير وجهه بما في ضميره ،وكلمتني عيناه بما يحوي قلبه ،فتجد في الحال وصفا هو شبيه بالنطق من الإنسان ،وذلك أن الحال تدل على الأمر ويكون فيها إمارات يعرف بها الشيء ،كما أن النطق كذلك ،وكذلك العين فيها وصف شبيه بالكلام وهو دلالتها بالعلامات التي تظهر فيها وفي نظرها وخواص أوصاف يتحدد بها ما في القلوب من الإنكار والقبول ،ألا ترى إلى حديث الجمحي ،حكى عن بعضهم قال: أتيت الجمحي استشيره في امرأة أردت التزوج بها ،فقال أقصيرة هي أم غير قصيرة ؟قال: فلم أفهم ذلك ،فقال لي: كأنك لم تفهم ما قلت ،إني لأعرف في عين الرجل إذا عرف ،وأعرف فيها إذا أنكر ،وأعرف إذا لم يعرف ولم ينكر ،أما إذا عرف فإنها تخاوص ،وإذا لم يعرف ولم ينكر فإنها تسجو ،وإذا أنكر فإنها تجحظ ،أردت بقولي قصيرة أي: هي قصيرة النسب تعرف بابيها أو جدها.[٣١]

([٣٠])انظر نكري ، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد (٢٠٠٠م) دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ، تحقيق وتعريب: حسن هاني فحص، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ج١/ص٧٦ ،و ابن أمير الحاج ،و التقرير والتحرير في علم الأصول ،[د.ط]، بيروت : دار الفكر ، (١٩٩٦م) ، ج٢/ص٥٢.

([٣١])انظر الزمخشري ، أساس البلاغة ، مرجع سابق ، ج١/ص٣٩.

"فدلالة المقال أكمل من دلالة الحال ودلالة الحال المعينة أكمل من الدلالة الكلية المنطقية ".[٣٢]

"والراوي أدرى بما روى من غيره لأنه قد يعلم من سياق الكلام قرائن لا يعلمها الغائب".[٣٣]

" المحبة لا تظهر على المحب بلفظه وإنما تظهر عليه بشمائله ونحوله... الدلالة عليها في الحقيقة هو شاهد الحال ... ،ففرق بين من يقول لك بلسانه: إني أحبك ولا شاهد عليه من حاله ،وبين من هو ساكت لا يتكلم، وأنت ترى شواهد أحواله كلها ناطقة بحبه لك،...وبالجملة فشاهد الحب الذي لا يكذب هو شاهد الحال وأما شاهد المقال فصادق وكاذب ".[٣٤]

" دلالة شيء يقتضي معنى ما لم يذكر مما تقديره أن يذكر ،وذلك نحو تكبير الناس عند طلب الهلال يقتضي معنى رائي الهلال كأنه ناطق به ،وتوقع الناس للهلال إذا قال قائل في تلك الحال: الهلال، يقتضي هذا الهلال ،والفعل للشاهد من نحو القرب والإعطاء إذا قال قائل: وزيدا ،يقتضي اضرب زيدا أو

([٣٢])انظر أبا عبد الله شمس الدين الزرعي الدمشقي ، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ،تحقيق : علي بن محمد الدخيل الله ،ط٣ (الرياض: دار العاصمة (١٩٩٨م) ، ج٢/ص٧٦٤-ص٧٦٥.

([٣٣])انظر محمد الأمين الجكني الشنقيطي ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات ،[د.ط](بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر ،١٩٩٥م)، ج١/ص٢٨٧.

([٣٤])انظر محمد الزرعي، طريق الهجرتين وباب السعادتين ، تحقيق : عمر بن محمود ، ط٢(الدمام : دار ابن القيم ،١٩٩٤م) ، ج١/ص٤٦٥ .

أعط زيدا فهذه دلالة الحال التي تصحب الكلام ".[٣٥]ما ذكر في فتح الباري باب قول النبي –صلى الله عليه وسلم – :"من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج "حيث أشار إلى ذلك في شرحه لقوله :(ومن لم يقدر على ذلك فعليه بالصوم) [٣٦]قيل : فيه إغراء بالغائب ،ومن أصول النحويين أن لا يغرى الغائب ، وتعقبه عياض بأن هذا الكلام موجود لابن قتيبة والزجاجي ،ولكن فيه غلط من أوجه :أما أولا فمن التعبير بقوله لا إغراء بالغائب والصواب فيه إغراء الغائب فأما الإغراء بالغائب فجائز ،ونص سيبويه :أنه لا يجوز دونه زيدا ،ولا يجوز عليه زيدا عند إرادة غير المخاطب ،وإنما جاز للحاضر لما فيه من دلالة الحال بخلاف الغائب فلا يجوز لعدم حضوره ومعرفته بالحالة الدالة على المراد .[٣٧] ويقول ابن القيم في أهمية الأحوال المشاهدة ،ومعرفة سياق المقال الذي لا يدع مجالا للتأويل:

"وأصخ لفائدة جليل قدرها

تهديك للتحقيق والعرفان

إن الكلام إذا أتى بسياقه

يبدي المراد لمن له أذنان

([٣٥])انظر أبا الحسن علي الرماني ، منازل الحروف ، تحقيق : إبراهيم السامرائي ،[د.ط] (عمان : دار الفكر [د.ط]) ، ج١/ص٨١–ص٨٢.

([٣٦])في رواية مغيرة عن إبراهيم عند الطبراني :(ومن لم يستطع فعليه بالصوم) ، انظر العسقلاني ، فتح الباري ، مرجع سابق ، ج ٩/ص١٠٩ .

([٣٧])انظر مرجع سابق ، ج٩/ص١٠٩.

أضـــحى كـــنص قـــاطع لا يقبـــل الـــت

أويـــــل يعـــــرف ذا أولـــــو الأذهـــــان

فـــسياقة الألفـــاظ مثـــل شـــواهد ال

أحـــــوال إنهمـــــا لنـــــا صـــــنوان

إحـــــداهما للعـــــين مـــــشهودا بهـــــا

لكـــــن ذاك لمـــــسمع الإنـــــسان

فـــإذا أتـــى التأويـــل بعـــد ســـياقة

تبـــدي المـــراد أتـــى علـــى اســـتهجان

وإذا أتـــى الكتمـــان بعـــد شـــواهد ال

أحـــوال كـــان كـــأقبح الكتمـــان

فتأمـــل الألفـــاظ وانظـــر مـــا الـــذي

ســـيقت لـــه إن كنـــت ذا عرفـــان[٣٨]

([٣٨])انظر أحمد بن إبراهيم بن عيسى . توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، ط٣(بيروت : المكتب الإسلامي،: ١٤٠٦ هـ) ، ج١/ص٤٠١ .

كل ما سبق من نصوص يدل على أن فكرة المقام ،ودوره في تحديد المعنى هي فكرة معروفة عند العرب منذ القدم ، قبل أن تعرف عند الغرب تحت" نظرية السياق اللغوي" بعناصره المعينة [٣٩] .

فقد أدركوا أهمية المقام و الحال المعاينة في الدلالة على استقامة الكلام ، وتحقيق المرام.

وأثره في الوقوف على المعنى المقصود ،و رد الخاطئ، و تحديد دلالة الكلمات، وإفادة التخصيص، ودفع توهم الحصر ،و الذكر والحذف، والتقديم والتأخير إلى غير ذلك تعتبر من فوائد المقام في علم الدلالة ، ولا شك أن هناك علاقة تبادلية بين الدلالة والتركيب النحوي مما يساعد على تحديد المقصود وتمييزه ، تحديده وتمييزه،" فلا يمكن إغفال أثر دلالة سياق الحدث اللغوي وما لابسه من عناصر النحوية ، ولا يُنكر أن دلالة السياق تجعل فالجملة ذات التركيب الواحد يمكن أن ترد بمعاني مختلفة في مقامات متعددة بتعدد السياق الذي ترد فيه "[٤٠] .

المطلب الثالث: عناصر المقام :تكون المقام من ثلاث عناصر مهمة هي :١/الموقف :يتمثل في المقام المناسب للمقال المختار ،والظروف المحيطة بالموقف ، والملابسات المخالطة ،و العناصر الخارجية .٢/المتكلم : وهو الذي يصدر عنه الكلام .٣/المخاطب : وهو المستمع المتلقي للكلام .

([٣٩])انظر ف. ر. بالمر، علم الدلالة "إطار جديد"، ترجمة :صبري إبراهيم ،[د.ط] (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٥ م) ، ص ٧٧.

([٤٠])انظر عبد اللطيف ، النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي) ، مرجع سابق، ص١١٣،وفريد عوض حيدر ، سياق الحال في الدرس الدلالي "تحليل وتطبيق" ،[د.ط] (مصر : مكتبة النهضة المصرية ،[د.ت])،ص٣٠ ، وما بعدها .

هذه العناصر الثلاث لها دورها في الحدث الكلامي ،وسنتناول كل عنصر بالتفصيل على النحو الآتي: الموقف :مقام المقال يعنى به الموقف والدافع الذي يصدر من أجله الكلام ، فهل الموقف موقف مدح ، أو ذم أو شكر ،أو شكاية ،أو تهنئة ،أو تعزية ،أو جد ،أو هزل [٤١]؟ و ما نبرة الصوت المستخدمة في هذا الموقف عالية ، أم منخفضة ؟ ماذا يستلزم الموقف في صفة الكلام هل يستلزم إطناب ،أو إيجاز ،أو حذف ،أو إثبات ،أو تصريح ،أو إشارة ،أو كناية ،أو استعارة ؟ وهل المقام يستدعي التنكير أو التعريف ؟ الإطلاق أو التقييد ؟ التقديم أو التأخير؟ الذكر أو الحذف ؟ القصر أو خلافه ؟ الفصل أو الوصل ؟ الإيجاز أو الإطناب أو المساواة ؟ هل المقام في حضور الملوك والخلفاء أو العامة ؟....الخ. وماذا يصاحب هذا الموقف من ملابسات، وهل وُجد شيء لفت الأنظار إليه يدعو إلى المشاهدة أو الاستماع ،أو الشمَ ، أو التذوق ؟ وما ظروف المكان و الزّمان ،والعصرالتاريخي له ،ما موضوعه؟ ما باعث الكلام ؟ و ما المقصد منه والنية ؟ كل هذه الأمور تؤثر في الحدث الكلامي ،والأدوات اللغوية المستخدمة فيه فلكل مقام مقال ،ولكل عصر رجال . هذه الأمور تكون حاضرة عند الموقف الأول ،وقت ولادة الحدث اللغوي، ولكنها تكون غائبة حين يتم نقل الكلام إلى أشخاص آخرين لم يحضروا الموقف ،وبالتالي ستكون عائقًا في معرفة سرَ القاعدة النحوية المستخدمة في تركيب هذا الكلام دون غيرها . فالكلام الصادر لابد أن يكون مطابقاً لما يقتضيه الحال ، وهذا المطابقة هي التي تسمى بالبلاغة ، والذي اعتنى به البلاغيون ، ولا شك أن النحو عماد البلاغة ،وهو الأساس الذي أقام عبد القاهر الجرجاني نظرية النظم الشهيرة عليه، فقد اهتم الجرجاني بمقاصد المتكلمين ،وأغراضهم،ونظر في مدى

([٤١])انظر أبا الطيب القنوجي ، أبجد العلوم، تحقيق : عبد الجبار زكار ،[د.ط] (بيروت ، دار الكتب العلمية ،١٩٧٨ م) ، ج٢/ص٤٨٦.

موافقة معاني النحو لهذه المقاصد ،والأغراض "و رأى أن في هـذه العلاقـة يكمن علم شريف هو علم بلاغة الكلام ، وإعجاز القرآن ،وأن حظ الكلام مـن الجودة إنما هو بمقدار حظه من هذه المواءمة بين معاني النحـو ، ومقاصـد المتكلمين " (٤٢).

" وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ومقتـضى الحال مختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة فمقام التنكير يباين مقـام التعريـف ،ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد ،ومقام التقديم يباين مقام التـأخير ،ومقـام الذكر يباين مقام الحذف ،ومقام القصر يباين مقام خلافه ،ومقام الفصل يباين مقام الوصل ،ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة ،وكذا خطاب الذكي يباين خطاب الغبي ،وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام إلـى غيـر ذلـك ... ، وارتفاع شأن الكلام فـي الحـسن والقبـول بمطابقتـه للاعتبـار المناسـب ،وانحطاطه بعدم مطابقته له فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب ،وهذا أعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذي يسميه الشيخ عبد القـاهر بـالنظم حيث يقول النظم تآخي معاني النحو فيما بين الكلام على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام "(٤٣).

" فإن المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجـاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة أو كناية أو استعارة"(٤٤).

---

(٤٢)انظر محمد محمد أبا موسى ، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني ،ط١ (القاهرة : مكتبة وهبة ،١٩٩٨ م)،ص٣٣.

(٤٣)انظر الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق : بهيج غزاوي ،ط٤ (بيروت :دار إحياء العلوم ، ١٩٩٨م) ،ج١/ص١٣.

(٤٤)انظر المرجع السابق ، ج١/ص٢٨٨

المتكلم: المتكلم هو أحد الأركان الأساسية للمقام ، و المتكلمون يتباينون ، وتتعدد أصنافهم على قدر ما أتيح لهم من عقل وذهن حاضر ،فمنهم المتكلم الذي يتكلم عن نفسه ، ويفصح عما في تفاصيل ذهنه .ومنهم المتكلم المؤدي عن غيره ، مثل الرسل الذي كان يرسلهم الرسول – صلى الله عليه وسلم– للقبائل ، ومن ذلك أنه أرسل أبا بكر ،و أردفه بعلي رضي الله عنهما للمشركين يؤذن بسورة براءة ، وهما "معروفان عند أهل مكة بالفضل والدين والصدق ، وكان من جَهلِهُما أو أحدهما من الحاج ، وجد من يخبره عن صدقهما وفضلهما " [٤٥].وهناك المتكلم الذي يكون مجيبا لغيره في موقف عادي ،أو في هزل [٤٦] ،أو فخر [٤٧]،أو تفحش[٤٨] ، أو إفحام [٤٩]،كما يحدث في المناظرات مثلاً ،" وأحسن الجواب كله ماكان حاضرا مع إصابة معنى وإيجاز لفظ" [٥٠] ،و قال ابن عبد ربه :"قد مضى قولنا في الأجوبة وتباين الناس فيها بقدر عقولهم ومبلغ فطنهم وحضور أذهانهم". [٥١]وهناك المتكلم

([٤٥])انظر محمد الشافعي ، الرسالة ، تحقيق : أحمد شاكر [د.ط] (القاهرة :[د.ن] ،١٩٣٩م) ،ص٤١٥ ،و أبا عبد الله الزرعي الدمشقي ، أحكام أهل الذمة ، تحقيق : يوسف أحمد البكري – شاكر توفيق العاروري ،ط١ (الدمام – بيروت: رمادى – دار ابن حزم ،١٩٩٧م) ، ج٢/ص٨٨٧ .

([٤٦])انظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مرجع سابق ،ج٤/ص٣٧.

([٤٧])انظر المرجع السابق ، ج٤/ص٤٣.

([٤٨])انظر المرجع السابق ، ج٤/ص٤٨.

([٤٩])انظر المرجع السابق ، ج٤/ص٤٣.

([٥٠])انظر المرجع السابق ، ج٤/ص٢٦.

([٥١])انظر المرجع السابق ، ج٤/ص٥١.

الذي يخاطب نفسه ، ولكنه يريد غيره ، وهو ما يعرف بالكناية والتعريض[٥٢].وهناك المتكلم الذي يعاتب نفسه،كقول الشاعر [٥٣] :

يا نفس ذوقي عتابي قد دنا أجلي

مني ولم تقطعي آمال وصلهم

و هناك المتكلم الذي يتمثل بكلام غيره ،كما كان يفعل الرياشي إذا اعتراه هما ،كان ينشد شعر أبي العتاهية ، :وقال الرياشي :ما اعتراني هم ،فأنشدت قول أبي العتاهية حيث قال:

هي الأيام والغير

وأمر الله ينتظر

أتيأس أن ترى فرجا

فأين الله والقدر

([٥٢])انظر عمرو الجاحظ ، البيان والتبيين، تحقيق :عبد السلام هارون ،[د.ط] (القاهرة :مكتبة الخانجي ، ١٩٧٥م) ، ج١/ص٧٧ ،و الحسن العسكري ، الصناعتين ، تحقيق : علي البجاوي ومحمد إبراهيم [د.ط](بيروت: المكتبة العصرية ،١٩٨٦م)، ج١/ص٣٦٨، و ابن الأثير، (١٩٩٥م) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،[د.ط]، بيروت :المكتبة العصرية.ج٢/ص١٨٠ .

([٥٣])انظر ابن حجة الحموي ، خزانة الأدب وغاية الأرب ، تحقيق : عصام شقيو ،ط١(بيروت : دار ومكتبة الهلال ،١٩٨٧م) ، ج١/ص٣٢٠.

إلا سُرِّيَ عنّي وهبت ريح الفرج . [٥٤]

وهناك المتكلم الذي يرثي نفسه ، كقول الشاعر :

كأنّـــــــه قـــــــد قِيـــــــلَ في مَجْلِـــــــسٍ

قـــــــد كنـــــــتُ آتيـــــــهِ وأخْـــــــشاهُ

صـــــــارَ- اليَـــــــسيريّ إلى رَبّـــــــه

يَرْحَمُنـــــــا اللهُ وإيّـــــــاهُ[٥٥]

وندخل من ضمن عنصر المتكلم :لغة الجسد ،و التي لها أثرها على الكلام:

ورد عن القدماء عبارات توحي إلى تنبهم إلى الإشارة ، و الإيمـــاء ، وأثرها في الكلام ،فهي تمثل كل الكلام أحيانا ، أو بعضه ،وهي تبين ما يقصر الكلام عنه ، فحين نسمع قول الشاعر :

فأيقنـــــت أن الطـــــرف قـــــد قـــــال مرحبـــــا
أشـــــارت بطـــــرف العـــــين خيفـــــة أهلـــــها
وأهـــــلا وســـــهلا بالحبيـــــب المتـــــيم[٥٦]
إشـــــارة مـــــذعور ولم تـــــتكلم

([٥٤])انظر شهاب الدين الأبشيهي ، المستطرف ، تحقيق : مفيد محمد قميحة ،ط٢ (بيروت : دار الكتب العلمية ،١٩٨٦م)، ج٢/ص١٦١.

([٥٥])انظر محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس ،تحقيق : مجموعة من المحققين،[د.ط]([د.م]: دار الهداية [د.ت])، ج١٤/ص٤٦٠.

ندرك ما قلناه .

و تُعرف الإشارة بـــــائتلاف اللفظ مع المعنى ،وشرحها قدامة بـــأن قال :هو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على المعنى الكثير بإيماء ولمحة تـــدل عليه ،كما قيل في صفة البلاغة هي لمحة دالة ،وتلخيص هـــذا الـــشرح إنـــه إشارة المتكلم إلى المعاني الكثيرة بلفظ يشبه لقلته واختصاره بإشارة اليد فإن المشير بيده يشير دفعة واحدة إلى أشياء لو عبر عنها بلفظ لاحتاج إلى ألفاظ كثيرة ،ولا بد في الإشارة من اعتبار صـــحة الدلالـــة ،وحـــسن البيـــان مـــع الاختصار لأن المشير بيده إن لم يفهم المشار إليه معناه فإشارته معدودة من العبث ،وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – سهل الإشارة كما كـــان ســـهل العبارة ،وهذا ضرب من البلاغة يمتدح به ،والإشارة قـــسمان: قـــسم للـــسان وقسم لليد ،ومن شواهد الإشارة في الكتاب العزيز قوله :"وغيض الماء" فإنـــه سبحانه أشار بهاتين اللفظتين إلى انقطاع مادة الماء من نبع الأرض ومطـــر السماء وذهاب الماء الذي كان حاصلا على وجه الأرض قبل الإخبار ،ولو لـــم يكن كذلك لما غاض الماء.[٥٧] قال ابن عبد ربه: " الإشارة تبين ما لا يبينـــه الكلام وتبلغ ما يقصر عنه اللسان ،ولكنها إذا قامت مقام اللفظ ،وسدت مـــسد الكلام كانت أبلغ لخفة مؤنتهاوقلة محملها " .[٥٨]

وقال الجاحظ :" والمتكلم قد يشير برأسه ويده على أقسام كلامه ،وتقطيعه ففرقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ ،وضروب المعاني ولو قبـــضت يده ،ومنع حركة رأسه لذهب ثلثا كلامه .

([٥٦])انظر الجاحظ ، البيان والتبيين ، مرجع سابق ، ج١/ص٥٦.

([٥٧])انظر خزانة الأدب وغاية الأرب ، مرجع سابق ،ج٢/ص٢٥٨.

([٥٨])انظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مرجع سابق ، ج٤/ص١٤١ .

وقال عبد الملك بن مروان : لو ألقيت الخيزرانة من يدي لـــذهب شـــطر كلامي ."[٥٩]

و لاريب أن لغة الجسد من صفات العرب في بيانهم :" ومن كـــلام العـــرب الاختصار والإطناب والاختصار عندهم أحمد في الجملـــة وإن كـــان للإطنـــاب موضع لا يصلح إلا له وقد تومئ إلى الشيء فتستغني عن التفسير بالإيمـــاء كما قالوا : لمحةٌ دالةٌ "[٦٠].ومنه قول الشاعر[٦١]:

ووَدَّعـــــــتْني إيمـــــــاءً ومـــــــا نَطَقَـــــــتْ

إلا بـــــــــسَبَّابةٍ منهـــــــــا وعيْـــــــــنيْ

فهو يذكر أنها ودعته بإشارة من يدها ، فإشارة اليد كانـــت عوضـــا عـــن اللسان.

بل أن الإشارة تعد وجها من وجوه البلاغة :"البلاغة تكون علـــى أربعـــة أوجه تكون باللفظ والخط والإشارة والدلالة وكل منها له حـــظ مـــن البلاغـــة والبيان وموضع لا يجوز فيه غيره ،ومنه قولهم :لكل مقام مقال ،ولكل كـــلام جواب،ورب إشارةٍ أبلغُ من لفظ ".[٦٢]و يعد من أصناف المعـــاني مـــن لفـــظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: لفـــظ ،وإشـــارة ،وعقـــد ،وخـــط ،والنصبة :الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف الأربعة ،وهـــي الناطقـــة

([٥٩])انظر الجاحظ ، البيان والتبيين ، مرجع سابق ،ج١/ص٤٤٥.

([٦٠])انظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد، مرجع سابق ، ج٤/ص١٤٢.

([٦١])انظر المرجع سابق ،ج٥/ص٣٦٩.

([٦٢])انظر المرجع سابق ،ج٢/ص١١٥

بغير لفظ ،والمشيرة إليك بغير يد ،وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض وكل صامت وناطق ،وجميع هذه الأصناف الخمسة كاشفة عن أعيان المعاني ،وسافرة عن وجوهها ،وأوضح هذه الدلائل وأفصح هذه الأصناف: صنفان هما القلم واللسان وكلاهما للقلب ترجمان فأما اللسان فهو الآلة التي يخرج الإنسان بها عن حد الاستبهام إلى حد الإنسانية بالكلام ،ولذلك قال صاحب المنطق حد الإنسان الحي الناطق . ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها وحلية مخالفة لحلية أختها وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة ثم عن حقائقها في التفسير ،وعن أجناسها ،وأقدارها ،وعن خاصها ،وعامها وعن طبقاتها في السار والضار وعما يكون منها لغوا بهرجا وساقطا مطرحا . [٦٣]

– حركة العين أيضا تؤثر في الكلام فقد قال الجمحي : إني لأعرف في عين الرجل إذا عرف ،وأعرف فيها إذا أنكر ،وأعرف إذا لم يعرف ولم ينكر ،أما إذا عرف فإنها تخاوص ،وإذا لم يعرف ولم ينكر فإنها تسجو ،وإذا أنكر فإنها تجحظ ،أردت بقولي قصيره أي: هي قصيره النسب تعرف بابيها أو جدها.[٦٤]

و قال الشاعر:

([٦٣])انظر الجاحظ ، البيان والتبيين ،مرجع سابق ، ج١/ص٥٥ ،و ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مرجع سابق ، ج٤/ص١٧٤، و علي شافعي ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق : محب الدين العمري،[د.ط](بيروت: دار الفكر،١٩٩٥م) ، ج٥١/ص٣٥٦ .

([٦٤])انظر عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ،[د.ط]([د.م]:[د.ن] [د.ت])،ج١/ص٣٩.

نطقـــــتْ عينُـــــه بمـــــا في الـــــضمير[٦٥]

وقال الآخر [٦٦]:

العـــــين تبـــــدي الـــــذي في نفـــــس صـــــاحبها

مـــــــن المحبـــــــة أو بغـــــــض إذا كانـــــــا

والعـــــــين تنطـــــــق والأفـــــــواه صـــــــامته

حتـــــى تـــــرى مـــــن ضـــــمير القلـــــب تبيانـــــا

-الهيئة نفسها ،والحال الذي يشاهده الشخص يوحي بالمقصود دون حاجة إلى الكلام وسميت بالنصبة: "معنى النصبةهيئة الشيءكقول القائل فلان قـــائم ،وفلان قاعد ،وفلان ذاهب ،وفلان جاء "[٦٧]

"وأما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ ،والمشيرة بغير اليـــد ،وذلـــك ظاهر في خلق السموات ،والأرض ،وفي كل صامت ،ونـــاطق وجامـــد ونـــام ومقيم وظاعن ،وزائد وناقص فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق فالصامت ناطق من جهة الدلالة ،والعجماء معربة مـــن جهـــة

([٦٥])انظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مرجع سابق ، ج٢/ص١١٦

([٦٦])انظر الجاحظ ، البيان والتبيين ، مرجع سابق ، ج١/ص٥٦.

([٦٧])انظر أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، [د.ط](بيروت: دار صادر ، [د.ت]) ، ج١/ص١٥٢.

البرهان، ولذلك قال الأول: سل الأرض ،فقل: من أجـرى أنهـارك ،وغـرس أشجارك ،وجنى ثمارك فان لم تجبك حوارا أجابتـك اعتبـارا .... ومتـى دل الشيء على معنى فقد أخبر عنه ،وإن كان صامتا وأشار إليه وان كان سـاكتا ،وهذا القول شائع في جميع اللغات ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات" [٦٨]

-الإشارة باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعـد الشخـصان ،وبالثوب وبالسيف ،وقد يتهدد رافع السوط والسيف فيكون ذلك زاخرا رادعا ،ويكون وعيدًا وتحذيرًا.[٦٩]

أهمية لغة الجسد

الإشارة تشترك مع اللفظ في بيان المقصود ،فهي تغني عنه ، وتترجم مقصوده ، ولا يدركها إلا الذكي واسع الفهم ، ويسقط عنها قاصـر الفهـم." فالحال منبئة عن المقال ،و لسان الحال أفصح من لسان الشكر ،وقال الجاحظ :نحن نزخرف باللسان والناس يقضون بالعيان وفي أمرنا أثـر ينطـق عنـا ويتكلم إذا سكتنا .وقال الموسوي:

وإذا ســـــكتُ فـــــإن أنطـــــقَ مـــــن فمـــــي

عـــــني يـــــد المعـــــروف والإحـــــسان[٧٠] "

([٦٨])انظر الجاحظ، البيان والتبيين ،مرجع سابق ، ج١/ص٥٧-٥٨.

([٦٩])انظر الحسين الأصفهاني، محاضرات الأدباء ، تحقيق : عمر الطباع ،[د.ط] (بيروت: دار القلم، ١٩٩٩م) ،ج١/ص٤٤٨.

([٧٠])انظر الجاحظ ، البيان والتبيين ، مرجع سابق ،ج١/ص٥٥- ٥٦.

يعبر بلسان المقال عن لسان الحال فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ،و يعتقده نطقا والبصير بالحقائق يدرك السر فيه ، ومن هذا قوله تعالى : "وإن من شيء إلا يسبح بحمده "، فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للجمادات حياة وعقلا ونطقا بصوت وحرف حتى يقول: سبحان الله ليتحقق تسبيحه ،والبصير يعلم أنه ما أريد به نطق اللسان بل كونه مسبحا بوجوده ومقدسا بذاته وشاهدا بوحدانية الله سبحانه كما يقال :

وفي كل شيء له آية

تدل على أنه الواحد

... وكما يقال هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير ،وكمال العلم لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ولكن بالذات والحال .[٧١]والإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له ونعم الترجمان هي عنه ،وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط .وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة ،وحلية موصوفة على اختلاف في طبقاتها ودلالتها وفي الإشارة بالطرف والحاجب ،وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة في أمور يسرها الناس من بعض ،ويخفونها من الجليس وغير الجليس ،ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ،ولجهلوا هذا الباب البتة .[٧٢]

بل أن الإشارة قد تكون أكثر دلالة من الصوت :" هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت ،والصوت هو آلة

([٧١])انظر أبا حامد الغزالي ، قواعد العقائد ، تحقيق : موسى محمد علي ،ط٢(لبنان : عالم الكتب ،١٩٨٥م) ، ج١/ص١٣١-١٣٢.

([٧٢])انظر الجاحظ ، البيان والتبيين ،مرجع سابق ، ج١/ص٥٥- ٥٦.

اللفظ وهو الجوهر الذي يقوم به التقطيع و به يوجد التـــأليف ،ولـــن تكـــون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلا بظهور الصوت ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف وحسن الإشارة باليد والرأس مـــن تمـــام حسن البيان باللسان مع الذي يكون مع الإشارة من الدل ،والشكل ،و التفتـــل ،والتثني ،واستدعاء الشهوة ،وغير ذلك من الأمور".[٧٣]

المخاطب العنصر الثالث من عناصر المقام ، المستمع الذي قصده المتكلم بما صدر عنه من كلام .

فهناك المستمع المخاطب الذي توجه له الكـــلام ، وتعنيـــه بالخطـــاب ، وتوجيه الكلام ،مما يؤدي إلى رسم صورة خاصة للسياق ، فمخاطبة الملـــوك تختلف عن مخاطبة العامة ،" دخل رجل على عبد الملك بن مروان فقبّل يـــده ،وقال: يدُك يا أمير المؤمنين أحقُّ يدٍ بالتقبيل لِعُلوِّها في المكارم وطُهرِها من المآثم وأنك تُقِلُّ التَّثريب وتصفح عن الذنوب فمن أرادبـــك ســـوءاً جعلـــه الله حَصِيَدسيفِك وطريدخوفِك. " [٧٤] وهناك المستمع الذي لا تعنيـــه بالخطـــاب ، ولكنه قد يؤثر في طريقة المتكلم ، وتغيير الأداء كحال المعلـــم حـــين يلقـــى الدرس على مسامع طلابه ، فإذا حضر زائر إلى الفصل ، تغيرت نبرة صـــوته ، وتغير الأداء ، وقد يبدو عليه التوتر ، وقد يفقد بعـــض الكلمـــات ، و قـــد يستحضر أخرى ، ومن ذلك ما ورد في قصص بعض نوادر الخطبـــاء :" لمـــا قدم يزيد بن أبي سفيان الشام واليا عليها لأبي بكر خطب في النـــاس فـــأرتج عليه، فعاد إلى الحمد لله ،ثم أرتج عليه ،فعاد إلى الحمد لله، ثم أرتـــج عليـــه

---

(٧٣)انظر الجاحظ ، البيان والتبيين ، مرجع سابق ، ج١/ص ٥٦-٥٧.

(٧٤)أحمد زكي صفوت، ذيل جمهرة خطب العرب ،[د.ط](بيروت : المكتبة العلمية [د.ت])، ج٣/ص٣٥٠.

فقال: يا أهل الشام عسى الله أن يجعل من بعد عسر يسرا ،ومن بعد عي بيانا"[٧٥].و هناك مخاطب يوجه المتكلم له الكلام ليعرف رأيه ، كموقف ابن السماك مع الجارية :" كان محمد بن السماك الواعظ يتكلم يوما وجارية له تسمع كلامه فلما انصرف إليها ،قال لها :كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه إلا أنك تكثر ترداده، قال: أردده حتى يفهمه من لم يفهمه،قالت:إلى أن يفهمه من لم يفهمه قد ملّه من فهمه ". [٧٦]

وهناك مستمع يدفع المتكلم للإسراف في الكلام ، " اعلم أنّ السامع شريك القائل في الشر قال الله :" سمّاعون للكذِب" المائدة ،رأى عمرو بن عتبة بن أبي سفيان رجلا يشتم رجلاً بين يدي ،فقال لي: ويلك _وما قال لي ويلك قبلها_ نَزِّهْ سَمْعَكَ عن استماع الخنا كما تُنَزِّه لسانك عن الكلام به؛ فإن السامع شريك القائل ،وإنه عمد إلى شرِّ ما في وعائه فأفرغه في وعائك ولو رُدَّت كلمة جاهلٍ في فيه لَسَعِدَ رادُّها كما شقِي قائلُها ". [٧٧]وهناك المستمع الذي يريد المتكلم إلحاق الإهانة به، ومنه قوله تعالى : {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ } [٧٨] ،وقول الشاعر:

لا تشترِ العبد إلا والعصا معه

([٧٥])صفوت، ذيل جمهرة خطب العرب ، مرجع سابق ، ج٣/ص٣٥٩.

([٧٦])انظر ابن عبد ربه، العقد الفريد، مرجع سابق ، ج٢/ص ١٢٣-١٢٤،و أحمد بن علي بن ثابت الخطيب أبو بكر البغدادي ، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، تحقيق : محمود الطحان ،[د.ط] (الرياض: مكتبة المعارف،١٤٠٣هـ) ،ج٢/ص٦ .

([٧٧])انظر ابن عبد ربه ،العقد الفريد ،مرجع سابق ، ج٢/ص١٩٧-١٩٨، و أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب ،[د.ط](بيروت : المكتبة العلمية [د.ت])، ج٢/ص٢٣٤.

([٧٨]) سورة الحجر ، الآية :٣٤.

إن العبيـــــــــد لأنجـــــــــاس مناكيـــــــــد [٧٩]

و المستمع الذي يريد المتكلم توبيخه ،" {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِـالْبِرِّ وَتَنَـسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } [٨٠]. و أيضاً الـذي يُـراد تعجيـزه ،ومنه { قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }[٨١] . وقد يكون المراد تكذيبه ، كقوله : {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْـتَطَعْتُم مِّـن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [٨٢] . أو توبيخه، كقول الشاعر :

لا تنـــــه عـــــن خلـــــق وتـــــأتي مثلـــــه

عـــــار عليـــــك إذا فعلـــــت عظـــــيم[٨٣]

([٧٩]) عبد الملك الثعالبي ، يتيمة الدهر ، تحقيق: مفيد محمد قمحية ، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٩٨٣م) ، ج١/ص٢٥١ ،و العكبري ، أبو البقاء [د.ط] ديوان المتنبي ، تحقيق: مصطفى السقاوإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ،[د.ط] ، بيروت: دار المعرفة.ج١/ص٤٧.

([٨٠]) سورة البقرة ، الآية :٤٤.

([٨١])سورة البقرة ، الآية :٢٣ .

([٨٢]) سورة يونس ، الآية : ٣٨ .

([٨٣]) أبو الفرج الأصبهاني ، الأغاني، تحقيق : علي مهنا وسمير جابر، [د.ط] (لبنان: دار الفكر [د.ت])، ج١٢/ص١٨٨.

أو مدحه،كقول الشاعر:

فـــــــإن بـــــــني أميـــــــة في قـــــــريش

بنـــــــوا لبيـــــــوتهم عمـــــــدا طـــــــوالا [٨٤]

إلى غير ذلك من الأغراض التي تكون دافعـا للمـتكلم ،المهـم أن هـذه الأغراض يكون لها أثرها في صفة الكلام الذي يوجهه المتكلم للمخاطب،ومـا يصاحبها من إشارة بالجسد ، وهي من الأمور التي تغيب حين ينقـل الكـلام لأناس لم يشهدوا هذا المقام معاينة ، مما قد يؤدي إلى الالتباس أحيانـا فـي فهم بعض النصوص.

(٨٤)المرجع السابق ، ج٢١/ص٣٢٥.

المبحث الثاني : التنغيم ، ويشتمل على ثلاثة مطالب :المطلب الأول : تعريف التنغيم ،المطلب الثاني: أهمية التنغيم ،المطلب الثالث: أنواع التنغيم

تعريف التنغيم يدخل ضمن مقام الأداء الصوتي ، فالتلوين الصوتي الذي يصاحب نطق الكلام ، لا يكون حاضرا لدي من يُنقل إليه الكلام ، و لا يمكن الكشف عنه في اللغة المكتوبة ،دون الإشارة إليه ، والتنبيه له ، ومعرفته تساعد عن المعنى الذي يهدف إليه المتكلم ، و الذي يعنينا أن القدماء قد تنبهوا لهذه الظاهرة ، وأثرها في الكلام فيما يسمى اليوم عند علماء الدلالة بالتنغيم هو الارتفاع والانخفاض في درجة الجهر في الكلام ، وبسبب من التغير في نسبة ذبذبة الوترين الصوتين ،وسمي تنغيماً لأنه تنتج عنه نغمة موسيقية يتوسل بها إلى التعبير عن الحالات النفسي ، والمشاعر والانفعالات المختلفة ، فهناك تنغيم خاص بكل من الرضا والغضب ، والتعجب ،والاستفهام ،والإخبار، واليقين من غير إيراد ما يدل شيء من هذا كله من الألفاظ ، والأساليب النحوية يقع كلّ منها في نمط تنغيمي خاص به [٨٥].

أهمية التغيم : شاركت علامات الترقيم في الدلالة على كثير من المعاني ، إلا أنها لا تغني عن ما تفيده النغمة في ذلك ، لأنها الأصل ، فالعرب كانت توليها أهمية بالغة ، في إيصال معانيها ، في الوقت الذي لم تكن العلامات فيه معروفة ، مع أن علامات الترقيم ينحسر دورها فيما هو مكتوب ، حيث تتلاشى فائدتها لدى السامع ، الذي يعتمد على براعة المتكلم في تنويعه

([٨٥])انظر حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، مرجع سابق ، ص٢٢٨،و نوزاد حسن أحمد، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه ، ط١ (ليبيا: منشورات جامعة قاريونس ، ١٩٩٦م)، ص٢٦٠-٢٦١.

النغمة بحسب ما يقتضيه المعنى.[٨٦] و لاشك أن معرفةالصورة الصوتيةالتي يؤدي بهاالمتكلم الكلام ،وهو ما يعرف بـ " التنغيم " ،و رؤية وجه المتكلم لها دورها في حل مشكلات معنى النص وإعرابه ،و إرشاد العقل إلى المعنى المراد ، و قد تنبه القدماء لأثر هذه الظاهرة ، وإن لم يصرحوا بهذا المصطلح،وقد أشار إلى ذلك أحمد كشك في كتابه "من وظائف الصوت اللغوي" فقد خصص فصلاً في كتابه لدراسة التنغيم على أنّه ظاهرة نحوية[٨٧].يقول فيه: " إن الدارس لأول وهلة يدرك أن كثيرا من الظواهر اللغوية بات أمرها مرتبطا بالتنغيم ارتباطا قويا. وقدامى العرب، وإنْ لم يربطوا ظاهرة التنغيم بتفسير قضاياهم اللغويّة، وهم وإنْ تاه عنهم تسجيل قواعد لها، فإنّ ذلك لم يمنع من وجود خطرات ذكيّة لمّاحة تعطي إحساساً عميقاً بأنّ رفض هذه الظاهرة تماماً أمرٌ غير وارد، وإن لم يكن لها حاكم من القواعد" [٨٨].

إنه يعد قرينة صوتية هامة ينبغي استحضارها للوصول إلى المعنى ، ولها أثر كبير في توجيه الحكم الإعرابي المناسب الذي سيتضح من خلال ما سنذكره من أمثلة ولتوضيح دور النغم في تحديد المعنى الدلالي ، قال الدكتور تمام حسان : كلنا نعلم أن – يا – حروف النداء وأن كلمة – سلام – اسم من أسماء الله تعالى وهي كذلك ضد الحرب فإذا أخذنا بالمعنى الوظيفي لأداء النداء . والمعنى العجمي لكلمة – سلام – حين ينادي يا سلام ، فإن المعنى الحرفي أو ا لمقالي أو ظاهر النص – أننا ننادي الله – لا أكثر ولا أقل ،ولكن هذه العبارة صالحة لأن تدخل في المقامات اجتماعية كثيرة جداً ، ومع

([٨٦])انظر حسان، اللغة العربية معناها ومبناها ، مرجع سابق ، ص ٢٢٦ وما بعدها ، وقد ذكر الكاتب أمثلة كثيرة على التنغيم.

([٨٧])انظر أحمد كشك ، من وظائف الصوت اللغوي " ط١(القاهرة :دار غريب ، ٢٠٠٦م)، ص٥١، وما بعدها.

([٨٨])المرجع السابق ،ص٥٦.

كل مقام منها تختلف النغمة التي تصحب نطق العبارة ، فمن الممكن أن تقال هذه العبارة في مقام التأثير ، وفي مقام التشكيك ، وفي مقام الشخط ، وفي مقام الطرب ، وفي مقام التوبيخ ، وفي مقام الإعجاب وفي مقام التلذذ – وفي مقامات كثيرة [٨٩].

أنواع التنغيم:للنغمة أنواع بحسب ما تفيده من معانٍ ، منها: [٩٠] ١/ تنغيم الصوت ، وهو : " التصرف في نغمة اللفظ تبعًا لمقاصد التعبير " [٩١] ،كقول الشاعر [٩٢] :

طربت وما شوقًا إلى البيض أطرب

ولا لعبًا مني وذو الشيب يلعب

فيجوز أن ينشد المقطع الأخير من البيت ، " وذو الشيب يلعب " بنغمة المستفهم المنكر ، حتى كأنه قال : أو ذو الشيب يلعب ؟ كما يجوز أن ينشد بنغمة المخبر ، وكأنه أراد الإخبار بحصول لعب من ذي الشيب ، وأن

([٨٩])انظر حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ،مرجع سابق ،ص ٣٣٧–ص٣٤٦.

([٩٠])انظر فخر الدين قباوة ، التحليل النحوي أصوله وأدلته ،[د.ط](مصر :الشركة المصرية العالمية ،٢٠٠٢م ، ص ١٨٤– ص ١٩٣ .

([٩١])انظر المرجع السابق ، ص ١٨٥.

([٩٢])وهو الكميت .انظر الأصفهاني ، الأغاني ، مرجع سابق ، ج١٧/ص٣٠ ، و عبد القادر بن عمر البغدادي ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: محمد نبيل طريفي وأميل بديع اليعقوب ، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية ،١٩٩٨م) ،٢٩٣/٤.

ذلك أمر مألوف . ورُجح الرأي الأول ؛ لأنه الأنسب لحاله ، لانتفاء اللعب عنه وهو ما دلّ عليه المعنى الثاني.[٩٣]

٢/ النبر الوظيفي ، وهو " ضرب من التصويت لدلالة المقال " [٩٤] ،وحتى يكون العنصر ظاهراً للسامع ، فإن الصوت يفخم معه في بعض عناصر الكلام ، كنحو قول الشاعر:

كـــم عمـــةٌ لـــك يـــا جريـــر وخالـــةٌ

فـــدعاء قـــد حلبـــت علـــي عـــشاري

فـ (كم) تحتمل أحد معنيين :يجوز أن تكون للاستفهام التهكمي، وبالتالي يفخم النطق بها ، ويجوز أن تكون للتعجب فيناسبها حينئذ الخفة في النطق [٩٥].

٣/ تلوين الوقفات[٩٦] : والمراد به تنوع الصوت المصاحب للكلمة المراد الوقوف عليها، وذل يكون وفقا لتنوع الأغراض الدلالية طـوًلا وقصرًا ، ارتفاعًا وانخفاضًا .

ويمكن أن يظهر هذا النوع بوضوح في الآيات القرآنية . ففي مثل قوله تعالى : {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ } [٩٧] الأنسب في الوقوف على " ماليه

([٩٣])انظر قباوة ، التحليل النحوي أصوله وأدلته ،مرجع سابق، ص ١٨٥ .

([٩٤])انظر المرجع السابق ، ص ١٨٥، ١٨٦.

([٩٥])البيت الفرزدق .انظر الأنصاري ، أوضح المسالك ، مرجع سابق ،ج٤/ص٢٧٢ ،والبغدادي ، خزانة الأدب ، مرجع سابق ، ج٦/ص٤٣٩.

([٩٦]) قباوة ، التحليل النحوي أصوله وأدلته ،مرجع سابق، ص ١٨٧ وما بعدها .

" انخفاض الصوت مع قصره أو انقطاعه ، ليظهر بذلك معنى الحسرة والندم على التفريط ، وتصور حال القائل بها يوم القيامة بأنه قد انقطع نَفسه ، وضعف صوته ، لهول ما يرى [٩٨].

في حين أن الوقوف على " أحد " في قوله تعالى {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ }[٩٩] فإنه يستلزم رفع الصوت المتناسب مع لفظ الجلالة ، ثم يأتي دور قلقلة الدال ، ليقع اسم الجلالة في نفس السامع أعظم موقع .

القسم الثاني : الدراسة التطبيقية، ويشتمل على مبحثين :

- **المبحث الأول: المقام المُتَعَمّد من خلال أثر ظاهرة التنغيم في القاعدة النحوية**

- **المبحث الثاني : المقام غير المُتَعَمّد من خلال أثر المحسوسات ، و المجردات في القاعدة النحوية**

مما يدل على تنبه القدماء إليه، واجتهادهم في تفسير ما غاب عنهم ، وإشارتهم إلى أهميته في معنى النص ، وعلى تأثيره في القاعدة النحوية ، ما سنعرضه تحت هذا المطلب من شواهد وأمثلة .

([٩٧]) سورة الحاقة ، الآية ٢٨.

([٩٨])ويحتمل أن يكون نفيا أو استفهاما يراد به النفي . انظر محمود الزمخشري ، المفصل ، تحقيق : علي بو ملحم ،ط١(بيروت : مكتبة الهلال،١٩٩٣م)، ص ٤٦١، ومحمد الغرناطي الكلبي ، التسهيل ،ط٤(لبنان: دار الكتاب العربي، ١٩٨٣م)،ج٤/ص١٤٤،و عبد الرحمن ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: ابن عثيمين ،[د.ط](بيروت: مؤسسة الرسالة ،٢٠٠٠م)، ج١/ص٨٨٤ ،و أحمد القلقشندي ،صبح الأعشى في كتابة الإنشا، تحقيق: عبد القادر زكار ،[د.ط](دمشق: وزارة الثقافة ،١٩٨١)،ج٢/ص٢٨٤.

([٩٩]) سورة الإخلاص، الآية :١.

هذه الشواهد ستدل دلالة واضحة على أن معرفة تفاصيل المقام ،و معاينته تدخل في معظم أبواب النحو ، فمجرد أن تجد كلمات كـ: (التأويل) ، أو (التقدير)،أو (الحذف) ،أو (الاستتار) ،أو (الاتساع) ،أو(الفصل) ،أو(التقديم) ،أو(التأخير) ،أو عبارة (يروى بوجه آخر) كالأبيات الشعرية ،أو(يجوز فيه كذا)،أو (يحتمل كذا) إلى غير ذلك من العبارات المتناثرة في كتب النحاة ، التي توحي بتعدد الوجه الإعرابي بما يؤدي إلى توسّع دائرة الاحتمالات في فهم المعنى ، فثق تمام الثقة أنه يدخل ضمن أثر غياب أمور معينة راعاها صاحب الكلام الذي يبتغي مقصداً ما. وهي جملة القرائن المحيطة بالحدث اللغوي المتمثل في هذه العبارة أو تلك الجملة ، أو ذلك البيت الشعري ، وهو السبب الرئيسي الذي دفع النحاة إلى استخدام هذه الكلمات في كتبهم النحوية ، كمخرج مباح لتبرير غياب العنصر الاجتماعي عنهم ،و عجزهم عن استحضار تفاصيل الحال المشاهدة، مما يدل على تنبه القدماء إليه، واجتهادهم في تفسير ما غاب عنهم ،وإن كان ذلك بطريق غير مباشر،" أنهم لم يقتصروا على النظر في بنية النص اللغوي، كما لو كان شكلا منعزلا عن العوامل الخارجية التي تلفه وتحيط به، وإنما أخذوا مادتهم اللغوية ، على أنها ضرب من النشاط الإنساني الذي يتفاعل مع محيطه وظروفه، كما فطنوا إلى أن الكلام له وظيفة ومعنى في عملية التواصل الاجتماعي، وأن هذه الوظيفة وذاك المعنى لهما ارتباط وثيق بسياق الحال أو المقام وما فيه من شخوص وأحداث.ظهر هذا كله في دراستهم وإن لم ينصوا عليه مبدأ من مبادئ التقعيد، أو أصلا من أصول نظريتهم اللغوية" [١٠٠].ويدل على ذلك ما سنذكره من بعض الشواهد التي عالجوها في أبواب النحو، وقد قمت بتصنيف هذه الشواهد إلى صنفين:

([١٠٠])انظر بشر ، علم اللغة الاجتماعي "مدخل" ، مرجع سابق، ص٦٦.

- الصنف الأول: مقام متعمد[١٠١] من خلال أثر ظاهرة التنغيم في القاعدة النحوية.

- الصنف الثاني :مقام غير متعمد من خلال أثر المحسوسات ،والمجردات في القاعدة النحوية.

وقد قسمت الصنف الثاني إلى قسمين :

- الأول: المقام من خلال أثر المحسوسات في القاعدة النحوية.

- الثاني : المقام من خلال أثر المجردات في القاعدة النحوية.

وقد وضعت هذا التصنيف بناء على الشاهد اللغوي نفسه ، كيف نتج في الأساس هل كان معتمدا على نطق المتكلم ، وما يصاحبه من تلوينات صوتية بالدرجة الأولى فيما يعرف بالتنغيم ، أم كان معتمداً على حواس المتكلم الخمس بمعنى هل أبصر ثم نطق ؟ أم سمع ثم نطق ؟ أم تذوق ثم نطق ؟أم شم ثم نطق ؟

فإذا لم يكن معتمدا على نطق المتكلم ،وحواسه الخمس في إنتاج النص اللغوي ، فعلى أي شيء اعتمد؟

([١٠١]) وضعت هذاالاسم لهذا النوع من المقام من باب أن ظاهرة التنغيم تطبيقها على الشاهد يكون متعمدًا من قبل المتكلم ،و يمكن الاستدلال على ذلك من خلال قصة أبي الأسود الدؤلي مع ابنته حين قالت : (ما أحسنُ السماء) ، وهي لا تريد الاستفهام ، وإنما التعجب ، فقال لها :قولي (ما أحسنَ السماء) ، فلو كان التنغيم يظهر تلقائيا ًدون تعمد لأدرك أبو الأسود ذلك ،دون أن يخطأ في الرد على ابنته، بعكس القسم الثاني فالمحسوسات والمجردات ، لا تحتاج لتعمد من المتكلم ، وإنما هي تلقائية تصدر في نفس الموقف ، يدركها مباشرة من شهد الموقف ، أو وصفت تفاصيله له .

فما كان من الشواهد معتمدا على التلوين الصوتي أدرجته تحت صنف التنغيم نظراً لكثرته عند القدماء لذلك أفردته بصنف خاص به. وما كان بسبب هذه الحواس صنفته تحت قسم المحسوسات ،وما خرج عن الحواس الخمس للمتكلم المنتج للكلام صنفته تحت قسم المجردات ، بمعنى أن النص الذي أمامي إذا أشار إليه من يحاول استحضار المقام الذي حدث فيه النص اللغوي مستخدمًا عبارات نحو : (إذا رأيت ، شممت ، لمست ، سمعت ، ذقت) وغيرها مما تدل على الحواس ، كان هذا الشاهد متأثراً بمقام الحواس في تركيبه ،و إذا لم يكن معتمدا على ما شاهده المتكلم أو سمعه أو ...،بل يعود لشيء آخر قد يكون في نيته أو عقله ، أو في عقل المخاطب ،أو غيرها من العوامل مما لم يكن معتمدا على الحواس الخمس في تركيبه صنفته تحت المجردات .

المبحث الأول: المقام المُتَعَمّد من خلال أثر ظاهرة التنغيم في القاعدة النحوية

مما جاء من الأمثلة التي وردت في كتب القدماء يظهر فيها أثر هذه الظاهرة في توجيه الحكم النحوي ، ما يلي :

– موقف الكسائي مع اليزيدي الذي نتج عن عدم معرفة المقام الذي قيل فيه الكلام ، وجهل الكسائي بنبرة صوت الشاعر حين سأله اليزيدي ، وهم بحضرة الخليفة عن قول الشاعر :

ما رأينا خربا نقر عنه البيض صقر

لا يكون العير مهرا لا يكون المهر مهر

فقال الكسائى :يجب أن يكون المهر منصوبا على أنه خبر كان، وفى البيت على هذا التقدير إقواء ،وقال اليزيدى: بل الشعر صواب ؛لأن

الكلام قد تم عند قوله لا يكون الثانية ،وهى مؤكدة للأولى ثم استأنف فقال المهر مهر ثم ضرب بقلنسوته الأرض وقال : أنا أبو محمد .

وكان بحضرة الخليفة فقال يحيى البرمكى: أتكتني بحضرةأمير المؤمنين والله إن خطأ الكسائى مع حسن أدبه لأحسن من صوابك مع سوء أدبك ،فقال اليزيدى: إن حلاوة الظفر أذهبت عنى التحفظ .[١٠٢]

فأداء الكلام إذن في حال الوصل قد يقتضي تحليلاً نحويّاً يختلف عنه في حال قطع أجزائه إلى دفعات كلامية منفصل بعضها عن بعضها الآخر. ويشير ابن جني إلى أهمية نبرة الصوت حيث يقول: من ذلك لفظ الاستفهام، إذا ضامّه معنى التعجب استحال خبراً، وذلك قولك: مررت برجلٍ أيّ رجل. فأنت الآن مخبر بتناهي الرجل في الفضل، ولست مستفهماً. وكذلك مررت برجلٍ أيِّما رجل؛ لأن ما زائدة" [١٠٣] . "ومن ذلك لفظ الواجب، إذا لحقته همزة التقرير عاد نفياً، وإذا لحقت لفظ النفي عاد إيجاباً. وذلك كقول الله سبحانه: { أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ } [١٠٤] : أي ما قلت لهم، وقوله : { قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ } [١٠٥] أي لم يأذن لكم. وأما دخولها على النفي فكقوله –عز وجل– { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ }

([١٠٢])انظر تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى،تحقيق : محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو ،ط٢ ([د.م]:هجر ، ١٤١٣هـ) ،ج٣/ص١٤٢ ، وياقوت الحموي ، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، ط١ ،(بيروت ،دار الكتب العلمية ، ١٩٩١م)،ج٤/ص٩٢.

([١٠٣])انظر ابن جني ،الخصائص ، مرجع سابق ،ج ٣/ ص٢٦٩.

([١٠٤]) سورة المائدة ،الآية : ١٦.

([١٠٥])سورة يونس، الآية : ٥٩.

[١٠٦] : أي أنا كذلك" [١٠٧] . و قد عده مسوغا للحذف ،كحذف الصفة :" مَـا حكاه سيبويه من قولهم:، سِيرَ عليه لَيْلٌ ،وهم يُريدُونَ لَيْلٌ طَويلٌ فإنما حَـذَفَ الصِّفَةَ لما دَلَّ من الحَالِ على مَوْضِعِهَا ،وذلك أنك تحس في كلام القائل لـذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم [١٠٨]ما يقوم مقام قولـه طويـل ،أو نحو ذلك وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه، فتقول: كان والله رجلا .فتزيد في قوة اللفـظ بـ(الله) هـذه الكلمة ،وتتمكن في تمطيط اللام [١٠٩]،وإطالة الصوت بها وعليهـا أي رجـلا فاضلا أو شجاعاأو كريما ،أو نحو ذلك ،وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنـسانا ،وتمكن الصوت بـ(إنسان) ،وتفخمه فتستغنى بذلك عن وصفه ،بقولك: إنسانا سمحا أو جوادا أو نحو ذلك و،كذلك إن ذممته ووصفته بالضيق ،قلت :سألناه وكان إنسانا ،وتزوى وجهك وتقطبه فيغنى ذلك عن قولك: إنـسانا لئيمـا أو لحزا أو مبخلا أونحو ذلك،فعلى هذا وما يجرى مجراه تحذف الصفة ".[١١٠]

والتنوين ظاهرة صوتية تؤثر في الحكم النحوي ويظهر ذلك في التفريق بين قولك : أنا قاتلُ غلامك ، وقولك : أنا قاتلٌ غلامك ، خاصة أن التنوين هو

([١٠٦]) سورة الأعراف ،الآية :١٧٢.

([١٠٧])انظر ابن جني ، الخصائص ، مرجع سابق ، ج ٣/ص٢٦٩.

([١٠٨]) (التطويح) من طوح به ذهب هنا وهناك، و (التطريح) فهو من طرح الشيء إذا طوّله ورفعه وأعلاه، و(التفخيم) فخم الكلام عظمه. وهي مصطلحات تدل على صفات الصوت، و تدل على معنى التنغيم، وإن لم يصرح بمصطلحه مباشرة .انظر الأفريقي ،لسان العرب ،مرجع سابق، مادة (طرح)، مادة (طوح).

([١٠٩]) قوله: "تزيد في قوة اللفظ" ،وقوله "تتمكّن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها" تدلّ على صفة صوتية هي النبر.

([١١٠])انظر خالد الأزهري ، شرح التصريح على التوضيح ،[د.ط] (مصر،دار إحياء الكتب العربية)،ج٢/ص١٣٠.

عبارة عن نون ساكنة زائدة تلحق آخر الاسم لفظا لا كتابة ، فحين يقول القائل :ما تقول في رجل قال لرجل: أنا قاتلُ غلامك ،وقال له: آخر أنا قاتلٌ غلامك ،أيهما كنت تأخذ به؟ فمن آخذهما جميعا .قد أخطأ ،؛لأن الذي يؤخذ بقتل الغلام هو الذي قال: أنا قاتلُ غلامك بالإضافة؛ لأنه فعل ماض ،وأما الذي قال: أنا قاتلٌ غلامك بالنصب، فلا يؤخذ ؛لأنه مستقبل لم يكن بعد كما قال الله عز وجل:" ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله" فلولا أن التنوين مستقبل ما جاز فيه غدا ، فانظر كيف دل التنوين من عدمه على زمن حدوث الفعل ، وما ترتب عليه من معنى! [١١١]

قول النحاة في باب التوكيد : " الحرف إن كان جوابيا أو مفصولا بسكتة ،أو باعتراضية أو بعاطف فلا شرط "[١١٢] فلا شرط في توكيد الحرف إذا كان مفصولا بسكتة، فكيف يعرف من وصلته النصوص مكتوبة أن هناك سكتة حصلت في أثناء الكلام؟

فالسكتة والوقف متن المظاهر الصوتية التي تؤدي إلى ضبط التركيب ،وتوجيه المعنى إلى الهدف المناسب. ما ورد في باب البدل في حديثهم عن إبدال الجملة بالمفرد:"

إلى الله أشكو بالمدينة حاجة

وبالشام أخرى كيف يلتقيان

([١١١])انظر الحموي ، المعجم الأدباء ،مرجع سابق ، ج٤/ص٩١ – ٩٢ .

([١١٢])انظر مرجع سابق ، ج٤/ص٩١ – ٩٢ .

أبدل جملة "كيف يلتقيان " من "حاجة وأخرى" أى إلى الله أشكو هاتين الحاجتين تعذر التقائهما ،ويحتمل أن يكون كيف يلتقيان جملة مستأنفة ، وليست بدلا، نبه بها على سبب الشكوى ،وهو استبعاد اجتماع هاتين الحاجتين في الشام [١١٣]، فكيف نعرف أن هناك استئناف دون أن نشاهد الموقف الذي قيل فيه الكلام ، خاصة أنه الاستئناف يتحقق بالسكتة ، والوقف في ثنايا الكلام ، وهذا أمر يجهله من لم يشهد الموقف الذي قيل فيه الكلام.

- يظهر أيضا في النداء ، والندبة في مد الصوت :فـ" يا، وأيا، وهيا،أي" تستعمل " إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشيء المتراخي عنهم،والإنسانِ المعرضِ عنهم، الذي يرون أنه لا يقبِل عليهم إلا بالاجتهاد، أو النائم المستثقل" [١١٤].

- كذلك يلعب التنغيم دورا في التفريق بين كم الاستفهامية ،والخبرية من خلال النطق ، فالاستفهامية جملة ناقصة تحتاج جوابا يكملها ، والخبرية جملة تامة مفيدة، فهل نطق جملة ناقصة ، كنطق جملة تامة ؟ ولا يتأتى ذلك دون أن نسمع طريقة الكلام.

و قد يختلف الحكم الإعرابي من خلال اختلاف الدلالة في مواقف تنغيمة متعددة ، فيمكن أن تكون الجملة ندائية مرة ، وتعجبية مرة أخرى وعلى ذلك قول الشاعر :

([١١٣])انظر ابن هشام الأنصاري ، مغني اللبيب ، تحقيق : مازن المبارك ومحمد علي ،ط٦، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٥م) ،ج١/ص٥٥٦، السيوطي ، همع الهوامع ، مرجع سابق ج٣/ص١٨٤ ،و أحمد التلمساني ، نفخ الطيب ،تحقيق : إحسان عباس، (بيروت: دار صادر،(١٣٨٨هـ) ،ج١/ص٦٧ .

([١١٤])انظر سيبويه ،كتاب سيبويه ، مرجع سابق ، ج١/ ص٢٢٩-٢٣٠ .

يـــــا ليـــــل الـــــصب متـــــى غـــــده

أقيـــــــام الـــــــساعة موعـــــــده[١١٥]

فمن توقف نطقه على كلمة (الصب) قائلا : يا ليل الصب . فسيكون المنادى منصوب لأنه مضاف ، وأن بداية الجملة الاستفهامية بعده قول الشاعر :متى غده؟ .ومن توقف نطقه على كلمة (ليل) قائلا : يا ليل . فسيكون المنادى مبني على الضم لأنه نكرة مقصودة ، وأن بداية الجملة الاستفهامية بعده قول الشاعر :الصب متى غده؟.و من توقف نطقه على كلمة (يا) قائلا : يا . وحدها فإن تصور "يا" حينئذ أمر وارد ومقبول، وأن بداية الجملة الاستفهامية بعده قول الشاعر :ليل الصب متى غده؟[١١٦]ومن ذلك قول الشاعر :

ثُـــمَّ قَـــالُوا: تُحِبُّهَـــا، قُلْـــتُ: بَهْـــراً

عَـــدَدَ الرَّمْـــلِ والحَـــصَى والتُّـــرابِ

يحتمل أن تكون جملة " تحبها " استفهاما ، ويحتمل أن تكون إخبارا وذلك يعود إلى طريقة نطقها من قبل الشاعر ،وما صاحبه من ارتفاع

---

(١١٥) البيت للحصري القيرواني.انظر ابن الوردي ، زين الدين ، تاريخ ابن الوردي ،ط١(بيروت : دار الكتب العلمية ،١٩٩٦م)،ج٢/ص٩ ،و عبد الحي العكري الحنبلي، شذرات الذهب ، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط و محمود الأرناؤوط، ط١ (دمشق : دار بن كثير ،١٤٠٦هـ) ، ج٥/ص٢٥٢.

(١١٦) كشك ،من وظائف الصوت اللغوي ، مرجع سابق ،ص١٠٨- ص١٠٩ .

الصوت وانخفاضه" فقيل: أراد أتحبها ؟ ،وقيل :إنه خبر أي أنت تحبها " [١١٧].

ومن ذلك تخريج النحاة لتقديم معمول اسم الفعل عليه ،بناء على السكتة في الكلام :

فاسم الفعل لا يجوز أن يتقدم عليه معموله ، لأنه لا يجري مجرى الفعل ،فإن تقدم كنحو : زيداً عليك، وزيداً حَذَرَك ، أجازه سيبويه بشرط وهو:" أنْ تقول: (زيداً)، فتنصبَ بإضمارك الفعل، ثم تذكرُ (عليك) بعد ذلك.فقول سيبويه : " ثم تذكر" ، يدل على أن المتحدث لابد أن يقف في كلامه ثم يكمل الحديث حتى يستقيم تركيبه [١١٨].

فالسكتة(الوقف)،والوصل ،و التنغيم المسموع ،و المشاهد في المقام الذي قيل فيه المقال ، تعدّ مظاهراً من مظاهر الفهم النحوي خاصة أن النص كان منطوقا ثم وصلنا مكتوبا، وهذا الرسم الكتابي يجيز أن تؤدَّى بغير صورة صوتية، وبالتالي يتوقف معناها الدلالي والنحوي على طبيعة أدائها، وبذلك يتعدد الحكم النحوي لهذه الأمثلة بتعدد أنماط الأداء التي تحتملها.

المبحث الثاني :المقام غير المُتَعَمّد من خلال أثر المحسوسات ،والمجردات في القاعدة النحوية: ومما ينبغي الإشارة إليه أن بعض ما ورد في هذا البحث هو نتيجة ما وقفتُ عليه من قراءات متعددة لبعض من أشاروا لهذا الجانب ، وبعضها اجتهاد في تلمس موضع غياب الحال المشاهدة في ما يتصل بالتراكيب ، و ما سأعرضه من شواهد هي علي سبيل المثال لا الحصر .

([١١٧]) البيت لعمر بن أبي ربيعة ، انظر الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، مرجع سابق، ص٢٠.

([١١٨])كتاب سيبويه ج١/ص٢٥٢.

أ/ المقام خلال أثر المحسوسات في القاعدة النحوية أقصد بالمحسوسات ،الحواس الخمس الخاصة بالمتكلم المتمثلة في السمع،والبصر ،والتـــذوق ،والشم ،واللمس ،والتي كانت دافعا أساسيًا له لإنتاج التركيب اللغوي بمـــا يشتمل عليه من قاعدة نحوية ، والتي تعتبر غائبة عمن سيـــصله الـــنص اللغويَ مكتوباً أو مســـموعاً، وقد جاءت في كتب القـــدماء علـــى النحـــو التالي :

المقام وأثر السمع في القاعدة النحوية: لاشك أنك إذا حضرت موقفاً ، وسمعت صوتاً لشيء معلوماً لديك كصوت تكسر زجاج النافذة مثلاً إذا أصابه حجراً ، ستنتج جملة تقول فيها : النافذة واللهِ ، فأنت نصبت (النافذة) دون أن تذكر الفعل الناصب (أصاب) اعتمادًا على ما ســـمعته،فهذا يمثـــل مقامًـــا معتمدًا على السمع أثر على القاعدة النحوية في التركيب ، ومثل هـــذا الأمـــر تنبه له القدماء ، وأشاروا إليه ،كما وجدنا عند ســـيبويه ،حيـــث قـــال:" وإذا سمعتَ وَقْعَ السَّهم فى القرطاس ، قلت :القرطاسَ واللهِ ،أي أَصاب القرطـــاسَ ".[١١٩] هذا التركيب اللغوي نتج في الأساس معتمدا على ما سمعه المـــتكلم ، يستلزم لمن ينقل له الكلام محاولة معرفة تفاصيل المقام .

- و يظهر أثر المقام في حذف المبتدأ ، و بقاء الخبر اعتمـــادا على على سماع المتكلم نحو:" أو سمعت صـــوتا ،فعرفـــت صـــاحب الصوت ،فصار آية لك على معرفته فقلت: زيدُ وربى "[١٢٠].

- أو المقام المعتمد على المعهود في ذهن المتكلم مما ســـمعه سابقاً، وتخزن في ذاكرته ، سيجعله في غنى عن ذكره مرة أخـــرى

([١١٩])انظر سيبويه ، كتاب سيبويه ، مرجع سابق ، ج١/ص٢٥٧.

([١٢٠])انظر المرجع سابق ، ج٢/ص١٣٠.

كإضمار المبتدأ ،فأنت : "لو حُدّثت عن شمائل رجل فصار آيــة لــك على معرفته، لقلت :عبدُ الله ، كأن رجلا قال: مررت برجــل راحــم للمساكين بار بوالديه ،فقلت :فلانٌ والله.[١٢١]

- ما سيسمعه المتكلم سيؤثر فيما سينتجه ،وبالتالي استحضار المقام بكل تفاصيله سيبين لك الوجه الإعرابي المناسب لــ(مــسلم وكافر) مثلاً في قولك: " مررت برجلين مسلم وكــافر"، فــإذا كــان السائل قد وجه كلامه للمسئول مستخدما عبارة : بأي ضرب مررت ؟ كان جواب المسئول : مررتُ برجلينِ مُسْلِمٍ وكافرٍ ، فجعل المــسلمُ والكافر بدلاً من رجلين ،و إذا استخدم السائل عبارة : فمــا همــا ؟ كان الجواب بالرفع ، ولا يتأتى لك ذلــك إلا بمــشاهدة الموقــف ، ومعرفة تفاصيله ،وقد تنبه لذلك سيبويه حين قال:" مررتُ بــرجلينِ مُسْلِمٍ وكافرٍ جمعت الاسمَ وفرّقتَ النعتَ ،وإن شــئت كــان المــسلمُ والكافر بدلاً ،كأنّه أجاب من قال: بأَيِّ ضربٍ مررتَ ؟ وإن شاءَ رَفَعَ كأنّه أجاب مَنْ قال: فما هما ؟فالكلامُ على هذا ،وإن لــمَ يلفــظ بــه المخاطَبُ لأنّه إنما يَجرى كلامُه على قدر مسألتك عنده لو سألتَه.

- وكذلك :مررتُ برجلِين رجلٍ صالحٍ ورجلٍ طالح ،إن شئت صيَّرته تفسيراً لنعتٍ وصار إعادتُك الرجلَ توكيداً ،وإن شئت جعلتَــه بدلاً كأنّه جوابٌ لمن قال :بأَيّ رجل مررتَ فتركتَ الأوّلَ واســتَقبلتَ الرجلَ بالصفة ،وإن شئت رفعتَ على قوله فما هما ؟ " [١٢٢].

([١٢١])انظر المرجع سابق.

([١٢٢])انظر المرجع سابق ، ج١/ص٤٣١.

المقام وأثر البصر في القاعدة النحوية :تنبه القدماء لأثر البصر المتمثل في رؤية الحدث ، وبالتالي إنتاج النص اللغوي فقد ذكر سيبويه قول القائل : "مكةَ ورب الكعبة" ، بأن ذلك يعود إلى رؤية المتكلم لرجل ظهر على هيئته هيئة الحاج ،وكان متوجها إلى مكة ،مما دفعه إلى إضمار الفعل معتمدا على ما رآه ، وهذه الرؤية التي أدت إلى نصب (مكة) لا يعرفها إلا من حضر الموقف ،وعاينه ،" وذلك قولك: إذا رأيتَ رجلاً متوجِّها وِجْهَةَ الحاجّ قاصدا فى هيئ الحاجّ ،فقلت: مكّةَ ورَبِّ الكعبة حيث زَكِنتَ أنَّه يريد مكّةَ ،كأنَّك قلت :يريد مكّةَ واللهِ ،ويجوز أن تقول: مكّةَ واللهِ ،على قولك :أَرادَ مكّةَ واللهِ، كأَنّك أخبرتَ بهذه الصفِّة عنه أنّه كان فيها أمسِ فقلتَ :مكة واللهِ أي أراد مكّةَ إذ ذاك " ،[١٢٣] فنصبت كلمة (مكة) في الجملة على فعل محذوف اعتمادا على رؤية البصر .

- ومثل (مكة) النصب الواقع في كلمة (القرطاس) ، في قول من قال : "القِرطاسَ واللهِ "، فالمقام المتمثل في رؤية المتكلم والحال المشاهد لرجل يصيب قرطاسا بسهم هو الذي أثر على القاعدة النحوية ،" أو رأيتَ رجلاً يسدِّدُ سَهْماً قِبَلَ القِرطاسِ ،فقلتَ: القِرطاسَ واللهِ، أي يُصيبُ القِرطاسَ " .[١٢٤] وقد عقب ابن جني عليه بقوله :" فـ(أصاب) الآن في حكم الملفوظ به البّتة،وإن لم يوجد في اللفظ، غير أن دلالة الحال نابت مناب اللفظ به ،وكذلك قولهم لرجل مهو بسيف في يده :زيدًا أي اضرب زيدًا ،فصارت شهادة الحال بالفعل بدلاً من اللفظ به ...،وقولك قد مررت برجل :إن زيدًا وإن عمرًا ،أي

([١٢٣])انظر المرجع سابق ، ج١/ص٢٥٧.

([١٢٤])انظر المرجع سابق ، ج١/ص٢٥٧،و ابن جني ، الخصائص ،مرجع سابق ، ج١/ص٢٦٤ .

إن كان زيدًا ،وإن كان عمرًا ،وقولك للقادم من حجه :مبرور مـــأجور أي أنت مبرور مأجور ،ومبرورا مأجورا أي قدمت مبرورا مـــأجورا " [١٢٥].

- ومما يظهر فيه أثر المقام المعتمد علـــى الرؤيـــة فـــي القاعـــدة الإعرابية أيضاً قول سيبويه : "ولو رأيت ناساً يَنظرون الهِلالَ ،وأنت منهم بَعيدٌ فكبَّروا لقلتَ: الهلالَ وربِّ الكعبةِ أى أَبَصروا الهلالَ".[١٢٦]

- ومثل ذلك عمل الفعل المضمر اعتمادًا على المقام الذي يـــشاهده المتكلم فيستغني المتكلم بالمشاهدة عن النطق باللفظ كأن يرى المتكلم رجلا عاد من سفر فيقول له : خَيْرَ مَقْدَمٍ ،أو خيرُ مَقْـــدَمٍ ، فالنَّـــصبُ كأَنَّه بناه على قول الرجل العائد من السفر: قَـــدِمْتُ ،فقـــال المـــتكلم: قَدِمْتَ خيرَ مَقْدَمٍ ،وإن لم يُسَمَعْ منه هذا اللفظُ فإنَّ قدومَـــه ،ورؤيتَـــه إيّاه بمنزلة قوله: قدمتُ ،وكذلك إن قيل: قَدِم فلانٌ ، فالنـــصبَ علـــى الفعل ،و الرفع على أنه مبتدأ أو مبنىٌّ على مبتدأ ،ولم يرد أن يحمله على الفعل ،ولكنَّهُ قال :هذا خيرُ مَقْدَمٍ.[١٢٧]

- و يظهر أثر المقام في حذف المبتدأ ، و بقاء الخبر اعتمادا علـــى مقام الرؤية نحو " أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة

([١٢٥])انظر المرجع سابق ، ج١/ص٢٨٥.

([١٢٦])انظر سيبويه ،كتاب سيبويه ،مرجع سابق ، ج١/ص٢٥٧، و علي بن عيسى الرماني ، رسالة الحدود ، تحقيق : إبراهيم السامرائي ، [د.ط] (عمان : دار الفكر [د.ت])،ج١/ص٨٢، والرماني ،رسالة منازل الحروف ، مرجع سابق ، ج١/ص٨٢.

([١٢٧])انظر سيبويه ،كتاب سيبويه ،مرجع سابق ، ج١/ص٢٧٠- ص٢٧١ ،وابن جني ، الخصائص، مرجع سابق ، ج١/ص٢٦٤.

الشخص، فقلت: عبدُ الله وربي، كأنك قلت: ذاك عبد الله أو هذا عبد الله " [١٢٨].

- و حين يقرر النحاة أن الاسم غير المندوب ينبه بخمسة أشياء "يا، وأيا، وهيا،أي ،وبالألف نحو قولك :"أحار بن عمرو " و أن الأربعة يا، وأيا، وهيا،أي غير الألف ،قد تستعمل إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشيء المتراخي عنهم،والإنسانِ المعرضِ عنهم، الذي يرون أنه لا يقبِل عليهم إلا بالاجتهاد، أو النائم المستثقل ،فما أدرى المنقول له الكلام ،على أي حال كان المخاطب الذي وجه له الكلام في ذلك الوقت ؟

- وكذلك قوله :"وقد يجوز لك أن تستعمل هذه الخمسة، غير وا ،إذا كان صاحبك قريبا منك،مقبلا عليك توكيدا. وإن شئت حذفتهن كلهن استغناء كقولك: حارِ بن كعب، وذلك أنه جعلهم بمنزلة من هو مقبل عليه بحضرته يخاطبه " ، فهذه عناصر خارجية محيطة بالمتكلم كانت هي الدافع الأساسي لنطقه ، ولا شك أن هذه الأمور لا يعلمها إلا من عاين الموقف الاجتماعي الذي قيل فيه هذا الكلام [١٢٩].

- من المواضع التي تشير إلى أهمية المقام ، وكيف أن لرؤية المتكلم الذي يمثل أحد أركان العنصر الاجتماعي دور في القاعدة النحوية ،والحذف من الجملة قول سيبويه :" وذلك قولك: زيداً وعمراً ورأسَه ،وذلك أنَّك رأيت رجلا يَضْرِبُ أو يَشْتِمُ أو يَقتل ،فاكتفيتَ بما هو فيه من عمله أن تَلفظَ له بعمله فقلت :زيداً ، أي أَوْقِعْ عملَك بزيدٍ

([١٢٨])انظر سيبويه ،كتاب سيبويه ،مرجع سابق ، ج٢/ص١٣٠.

([١٢٩])انظر المرجع سابق ، ج١/ ص٢٢٩-٢٣٠ .

،أو رأيتَ رجلاً يقول أَضْرِبُ شَرَّ الناسِ فقلتَ: زيداً ،أو رأيتَ رجلا يحدّثُ حديثا فقَطَعَهُ فقلتَ :حديثَك ،أو قَدِمَ رجلٌ من سفرٍ ،فقلت:حديثَك ،استغنيتَ عن الفعل بعلمه أنّه مستخبَرٌ فعلى هذا يجوز هذا وما أَشبهه". [١٣٠] فقد حذف المتكلم اعتمادا على ما رآه ماثلا أمامه من ضرب وقتل وشتم ،مما يدل على أهمية معرفة تفاصيل المقام الذي قيل فيه المقال.

- سيبويه يصرح بأهمية رؤية الحال التي يكون عليها المخاطب والمتكلم في الحذف والإظهار ،ومن ذلك :" قولك: أَقائماً وقد قَعَدَ الناسُ؟ و أَقاعِداً وقد سار الرَّكْبُ ؟ وكذلك إن أردتَ هذا المعنى ،ولم تَستفهم تقول :قاعداً عَلِمَ اللهُ وقد سار الركبُ ،وقائماً قد عَلِمَ اللهُ وقد قَعَدَ الناسُ ،وذلك أنّه رأى رجلاً فى حال قيامٍ أو حال قُعودٍ ،فأراد أن ينبِّهه فكأَنّه لَفَظَ بقوله: أتقومُ قائما ، و أَتَقُعد قاعدا ،ولكنَّه حذف استغناءً بما يرى من الحال ،وصار الاسمُ بدلاً من اللفظ بالفعل فجرى مجرى المصدر فى هذا الموضع "[١٣١]، فحذف الفعل استغناء بما يرى المتكلم من الحال الذي يكون عليها المخاطب من القيام أم القعود.

- و في معرفة القصد من الاستفهام تظهر فيه أهمية معرفة المقام ،وماذا رأى المتكلم أهو من قبيل الاستفهام الحقيقي أم يقصد المتكلم معنى آخر غير الاستفهام ؟

([١٣٠])انظر المرجع سابق ، ج١/ص٢٥٣.

([١٣١])انظر المرجع سابق ج١/ص٣٤٠، ص٣٤١ ، و محمد المبرد ،المقتضب ،تحقيق : محمد عظيمة،(بيروت: عالم الكتب ، [د.ط])، ج٣/ص٢٢٨.

ومن ذلك ، يقول سيبويه:" وذلك قولك :أَتميَميًّا مــرّة ،وقَيْــسيًّا أُخْرَى ؛ وإنَّما هذا أنَّك رأيتَ رجلا فى حال تَلَوُّنٍ ،وتنقُّلٍ فقلتَ: أَتميميّا مرّةً ،وقيسيًّا أُخْرَى ،كأنك قلت: أتحول تميمياً مرة ،وقيــسياً أخــرى. فأنت فى هذه الحال تَعمل فى تثبيتِ هذا له ،وهو عندك فى تلك الحال فى تَلَوُّنٍ وتنقُّلٍ ،وليس يَسأله مسترشِداً عن أمرٍ هو جاهلٌ به ليفهِّمَه إيّاه ويُخبِرَه عنه ولكنه وبَّخه بذلك ،وحدّثنا بعضُ العرب أنّ رجلاً من بنى أَسَدٍ قال يومَ جَبَلَةَ – واستَقبله بَعِيرٌ أَعْوَرُ فتَطَيَّرَ منه – فقال: يــا بنى أسدٍ أَعْوَرَ ،وذا نابٍ، فلْم يرد أن يَسترشدهم ليُخبِروه عن عَــوَرِه وصحّته و،لكنه نَبَّهَهم ،كأَنــه قــال: أَتَــستقبلون أَعْــوَرَ وذا نــاب، فالاستقبالُ فى حال تنبيهه إيّاهم كان واقعاً كما كان التلــوُّنُ والتنقُّــلُ عندك ثابتينِ فى الحال الأوّل ،وأراد أن يثبِّت لهم الأعورَ ليَحــذروه "[١٣٢].

– أيضاً المقام المعتمد على الرؤية سيدفع المتكلم لتغيير المعنى الذي يقصده من الخبر إلى الاستفهام المقصود به التعجب مثلاً، كقول سيبويه :" ألا ترى أنك تقول :سبحان الله من هو ،ومــا هــو ،فهــذا استفهام فيه معنى التعجب ،ولو كان خبرا لم يجز ذلك لأنه لا يجــوز في الخبر أن تقول: من هو وتسكت".[١٣٣]

– إن معرفة المقام ،ومعاينته له دور في تحديد معنى الفعل إذا كان له معنيان ، وبالتالي معرفة الحكم الإعرابي المناســب للجملــة ،كالفعل "رأيت" نحو: "رأيت زيدا الصالح" فإذا صدرت الجملــة مــن

([١٣٢])انظر سيبويه ، كتاب سيبويه ، مرجع سابق ، ج١/ص٣٤٣.

([١٣٣])انظر المرجع سابق ، ج٢/ص١٨١.

متكّلم أعمى ،كان معنى "رأيت" في الجملة ليس بمعنى الرؤية البصرية ،ولكن بمعنى العلم، و بالتالي تعرب كلمة "الصالح" في الجملة مفعول ثانٍ، وإذا صدرت من متكلم مبصر، تعرب نعتًا لزيد. وبالتالي يكون الفرق بين المعنيين قائما على حضور المقام ، ومعاينة المتكلمين، وإلى ذلك أشار النحاة وفي مقدمتهم سيبويه :" "وإن قلت رأيت فأردت رؤية العين،... فهو بمنزلة ضربتُ، ولكّنك إنما تريد بوجدتُ: علمتُ، وبرأيتُ ذلك أيضا. ألا ترى أنه يجوز للأعمى أن يقول: رأيت زيدا الصالح " ،وكذلك الفعل وجدت. (١٣٤)

- سيبويه أورد بابا بعنوان " ما يكون فيه المصدرُ حِيناً لسعة الكلام والاختصار" ،و ذكر أمثلة فيه حذف لركن من أركان الجملة من باب سعة الكلام واعتماده على فهم المخاطب ، مما يدل على تنبه النحاة على أهمية العنصر الاجتماعي المتمثل في رؤية المتكلم لدلالات تدل على فهم المخاطب لرسالته اللغوية ، ومن ذلك قوله :" وتقول: إذا كان غَدٌ فأْتِنْي ،وإذا كان يومُ الجمعة فالْقَني فالفعل لغدٍ واليومِ كقولك :إذا جاء غدٌ فأتني ،وإنْ شئت قلت: إذا كان غداً فأتني، وهى لغة بني تميم ،والمعنى: أَنّه لقي رجلا فقال له :إذا كان ما نحن عليه من السَّلامة ،أو كان ما نحن عليه من البَلاء في غد فأْتِني ،ولكنَّهم أَضمروا استخفافاً لكثرةِ كانَ فى كلامهم لأَنَّه الأصلُ لما مَضى وما سَيَقَعُ ...،وإنَّما أضمرُوا ما كان يقَع مُظهَرا استخفافاً ولأن المخاطَب يعلم ما يعنى فجرى بمنزلة المثل كما تقول :لا عليكَ ،وقد عَرَفَ المخاطبُ ما تعنى أَنّه لا بأْسَ عليك ولا ضَرَّ عليك ولكنَّه حُذِف لكثرة هذا فى كلامهم ،ولا يكون هذا فى غير " لا عليك" ،وقد تقول:

---

(١٣٤)انظر المرجع سابق ، ج١/ص٤٠.

إذا كان غَداً فأْتِني ،كأنّه ذكر أمراً إمَّا خُصومَة ،وإمّا صُلحاً ،فقال إذا كان غداً فأتني، فهذا جائزٌ فى كلّ فِعْلٍ لأنَّك إنما أَضمرتَ بعد ما ذكرتَ مظهَراً ،والأوَّلُ محذوفٌ منه لفظُ المظهَر وأضمروا استخفافاً "[١٣٥].

فقد قدر المحذوف في جملة " إذا كان غَدٌ فأُتنْي " أو " إذا كان غداً فأتني " في لغة تميم إما أن يكون :إذا كان ما نحن عليه من السَّلامة ،أو كان ما نحن عليه من البَلاء في غدٍ فأْتِني، أو يكون التقدير كأنّه ذكر أمراً إمَّا خُصومَة ،وإمّا صُلحاً ،فقال إذا كان غداً فأتني ، وفي التقديرين اعتماد على مشاهدة المتكلم المنتج للكلام لشخص أيقن أنه سيفهم ما يوجه له من كلام.

- و مما يدخل في موضوعنا أيضا، و أهمية حضور المقام ،ومعرفة تفاصيله لحاق الكاف بـ" رويدك " من عدمها ،فـ(رويد) في المقام الأول تعتمد على رؤية المتكلم البصرية للمخاطب ، فقد قرر لها سيبويه مواضع تلحق بها ، فحين يرى المتكلم المخاطب شخص معين كزيد في جماعة من الناس سيقول : رُوَيْدَكَ زيداً و رُوَيْدَكُمْ زيدا ، فألحق الكاف لـ(رويد) بناء على حاسة البصر التي تحققت في رؤية زيد ، وبالتالي من سيستحضر المقام ، سيدرك أن الكاف جاءت " لتُبيِّنَ المخاطَبَ المخصوصَ ؛لأنّ رُوَيْدَ تقع للواحد ،والجميع ،والذَّكر ،والأُنثى فإنَّما أَدخل الكافَ حين خاف الْتباسَ مَنْ يَعنى بمن لا يعنى ،وإنَّما حذفَها فى الأوَّل استغناء بعلم المخاطبَ أنّه لا يَعنى غيرَه " ، ثم يفصل سيبويه القول فيقول :"فلَحاقُ الكاف كقولك: يا فلانُ للرَّجُل حتَّى يُقْبِلَ عليك ،وتركُها كقولك للرجل: أنت تَفعلُ إذا كان مُقْبِلا عليك بوجهه مُنْصِتاً لك ،فتركتَ يا فلانُ حين قلت :أنت تَفعَلُ

(١٣٥)انظر المرجع سابق ، ج١/ ص٢٢٢،ص٢٢٤.

استغناءً بإقبالِه عليك " فإقبال الرجل يكون معلوما لمن حضر الموقف وعاينه بنفسه ،ومن كان غائبا عن الموقف سيجهل إقبال الرجل من عدمه!

فالإشارة إلى الرؤية أمر ضروري في استحضار الموقف. وحين يقول :"وقد تقول أيضاً رُوَيْدَكَ لمن لا يُخاف أن يَلتبسَ بسِواه توكيداً كما تقول للمقبلِ عليك المُنْصِت لك :أنتَ تَفعلُ ذاك يا فلانُ توكيداً " ، فما أدرى من نُقل له الكلام هل كان زيدا مثلا في جماعة أم لوحده ، هل كان مقبلا أم مدبرا؟ فهذه الأمور لا تعرف إلا بمعاينة الموقف ،وحضور المقام [١٣٦].ومن ذلك أيضاً إذا دخل شخص على مجموعة ، وأبصرهم بعينيه فقال :"سقيا" فهو دعاء ،ولكن هذه العبارة لمن وجهها ؟ هل وجهت للمجموعة كلها أم لشخص معين في المجموعة ؟ سيبويه يقول :" وأمّا ذكرُهم (لك) بعد (سَقْياً) ،فإنّما هو ليبيّنوا المعنَّى بالدعاءِ ،وربَّما تركوه استغناءً إذا عَرَفَ الدّاعِي أنّه قد عُلم مَنْ يَعنى" [١٣٧] ، فذكر (لك) بعد (سَقْياً) من عدمها ، يعتمد على معرفة تفاصيل الموقف ،من رأى المتكلم ، ولمن وجه الخطاب ؟

- من ذلك قول الشاعر :

يـــــا دارُ أَقْـــــوَت بعـــــدَ أَصْـــــرامِها

عامـــــاً ومـــــا يَعْنيـــــكَ مـــــن عامِهـــــا

([١٣٦])انظر المرجع سابق ، ج١/ ص٢٤٤.

([١٣٧])انظر المرجع سابق ، ج١/ص٣١٢.

الشاعر يبصر دارًا أمامه ، و بجانبه شخص أو مجموعة من الأشخاص ، يوجه بصره للدار ،ويخاطبها بعبارة (يا دارُ)، ثم يحول بصره لمن بجانبه ،ويكمل خطابه (أقوت ...) ، هذا التغيير لاتجاه البصر أدى إلى حذف التنوين في (يا دار) لأنه لم يجعل (أقوت) صفة الدار ، هذه الصورة المتخيلة فهمناها من قول سيبويه :"فإنما ترك التنوين فيه لأنه لم يجعل أقوت صفة الدار ،ولكنه قال يا دار ،ثم أقبل بعد يحدث عن شأنها ،فكأن الشاعر لما قال :يا دارُ ، أقبل على إنسان و ووجه كلامه إليه ،فقال: أقوت ،وتغيرت ،وكأنه لما ناداها ،قال :إنها أقوت يا فلان ،وهذا الموقف لا يعلمه إلا من عاينه ،فـ(أقوت) ليس بصفة.[١٣٨]

مما يدل على أن هناك مقاما بصريا يؤثر في التركيب النحوي ينبغي استحضاره.

- وما يظهر فيه المقام البصري أيضاً ،قوله تعالى : {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ{٧} فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ } [١٣٩] فجملة (فالتقطه آل فرعون) عطفت على جملة محذوفة ،معتمداً على الحال المشاهد ،فالتقاط الصندوق الملقى في أليم مترتب على ما قبله من الأمر بالإلقاء، يقول صاحب تفسير أبي السعود :" قد حذفت تعويلا على دلالة الحال وإيذانا بكمال سرعة

([١٣٨])انظر المرجع سابق ، ج٢/ص٢٠١ ،و عبد الرحمن السيوطي، الأشباه والنظائر ،ط١(بيروت : دار الكتب العلمية ،١٤٠٣هـ) ،ج١/ص٥٠.

([١٣٩])سورة القصص ،الآية :٧و٨.

الامتثال أي:" فألقته في اليم" بعد ما جعلته في التابوت حسبما أمرت فالتقطه آل فرعون أي أخذوه اعتناء به وصيانة له عن الضياع" ، فالحال المشاهد يتمثل في الأمر لأم موسى بالإلقاء ، ثم رؤية إلقاء الصندوق ، ثم رؤية التقاطه – تعالى الله عما نقوله وتنزَه – ، فالمقام البصري يؤثر في تركيب العبارة ، وظهر ذلك من خلال محاولة النحاة استحضار الموقف .[١٤٠]

– و مثله أيضًا قوله تعالى : {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً }[١٤١] ،فالجملة في قوله تعالى : { فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ } عطفت على جملة قد حذفت تعويلا على دلالة الحال عليها ،وإشعارا بغاية سرعة تحقق مدلولاتها أي : (فألقاها فصارت ثعبانا فاهتزت) .[١٤٢] مما سبق يدل على تنبه النحاة – كما رأينا عند سيبويه ،وابن جني–لأثر البصر في تركيب الجملة العربية ، واستحضاره في الكشف عن الحكم النحويَ المناسب.

المقام وأثر التذوق في القاعدة النحوي : المقام المعتمد على تذوق المتحدث لطعم شيء معروف لديه سيؤدي إلى إضمار العامل الأساسي في

([١٤٠])انظر محمد العمادي ،إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، [د.ط] (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت]) ج٧/ص٤ ،و شهاب الدين السيد محمود الألوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، [د.ط] (بيروت: دار إحياء التراث العربي [د.ت])، ج٢٠/ص٤٥.

([١٤١])سورة القصص، الآية :٣١.

([١٤٢])انظر العمادي ،إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، مرجع سابق ،ج٧/ص١٢.

الجملة ،كقول سيبويه في إضمار المبتدأ:" وذلك أنك... ذقت طعاما ،فقلت :العسلُ "[١٤٣] .

المقام وأثر الشم في القاعدة النحوية:المقام المعتمد على شم المتحدث لرائحة شيء معروف لديه سيؤدي إلى استغنائه عن العامل المتحكم في الجملة ،كقول سيبويه في إضمار المبتدأ:" وذلك أنك... شممت ريحا ،فقلت :.. المسكُ "[١٤٤] .

المقام وأثر اللمس في القاعدة النحوية:المقام المعتمد على لمس المتكلم سيؤدي إلى دفع المتكلم إلى حذف العامل المتحكم في الجملة ، فأنت إذا مسست جسداً لشخص معروف لديك ستقول مباشرةً ستقول: زيدٌ .

وقد ورد في كتاب سيبويه في باب ما يكون المبتدأ فيه مضمرا ويكون المبنى عليه مظهرا مثل ما ذكرنا حيث قال : "وذلك أنك ... مسست جسدا ... ،فقلت : :زيدٌ "[١٤٥] .

- يدخل ضمن هذه الحاسة الإشارة باليد أيضا ، "وأما قولهم: من ذا خير منك ،فهو على قوله: من الذي هو خير منك؛لأنك لم ترد أن تشير أو تومئ إلى إنسان قد استبان لك فضله على المسئول فيُعلمكه ،ولكنك أردت من ذا الذي هو أفضل منك ،فإن أومأت إلى إنسان قد استبان لك فضله عليه فأردت أن يعلمكه نصبت خير منك" [١٤٦] ، فكيف يعرف من نُقل له الكلام هل

([١٤٣])انظر سيبويه ،كتاب سيبويه ، مرجع سابق ، ج٢/ص١٣٠.

([١٤٤])انظر المرجع سابق ، ج٢/ص١٣٠.

([١٤٥])انظر المرجع سابق .

([١٤٦])انظر المرجع سابق ،ج٢/ص٦٠- ص٦١.

أشار المتكلم بيده أو لا ، وكيف يعرف قصده أهو من قبيل الاستفهام الحقيقي ، أم من قبيل المدح بأنه لا يوجد من هو خير منه ؟ نقول :يكون ذلك من خلال حالة (خير)الإعرابية من الرفع أو النصب الذي يعتريها حال النطق بها ،وهذا يدل دلالة واضحة أن إشارة اليد ، وقصد المتكلم لها أثرها في الحكم الإعرابي للكلمة ، وقد تنبه لها النحاة وخاصة سيبويه.

مما عرضنا يتضح لك كيف أن الحواس الذي يمتلكها المتحدث تكون سببا يعتمد عليه المتكلم في إنتاج كلامه، وهذه أمور ينبغي التنبه لها ، وعدم إهماله ، ومحاولة استحضاره لمعرفة سرّ تراكيب ما وصلنا إلينا مما كان غائبا عنا .

ب/ المقام من خلال أثر المجردات في القاعدة النحوية: أقصد بالمجردات العناصر الأخرى التي تؤثر في المتكلم ،ولم يعتمد فيها بشكل أساسي على الحواس،و قد كانت دافعا أساسيًا له لإنتاج التركيب اللغوي بما يشتمل عليه من قاعدة نحوية ، والتي تعتبر غائبة عمن سيصله النص اللغويَ مكتوباً أو مسموعاً ، كأن تعود إلى ما في "نيته ، وعقله ،أو الظروف المحيطة به "[١٤٧].، والتي تدفع النحاة إلى محاولة استحضارها ، فما سبق أن ذكرناه تحت مبحث المقام و المحسوسات، أرجعه النحاة إلى أمور محسوسة ، أما ما سنذكره فقد أرجعه النحاة إلى أمور غير قائمة على الحواس مما يعد شيئًا مجردًا ، دفعهم لوضع احتمالات عدة للمعنى الدلالي المقصود ، الذي يفطن له ،ويعلم حقيقة أمره من عاين بنفسه المسرح اللغوي الذي حدث فيه ولادة

([١٤٧]) المجردات غير المحسوسات ،كالروح والعقل تعد من المجردات .انظر سعد الدين التفتازاني ، شرح المقاصد ،ط١ (باكستان: دار المعارف النعمانية، ١٩٨١م) ، ج٢/ص٨٨ ،و الألوسي ،روح المعاني ، مرجع سابق ، ج١/ص٣٤١ ،و القنوجي، أبجد العلوم، مرجع سابق ،ج٢/ص٤١٧.

النص اللـــغويً ، وإن استعانوا بما دلت عليـــه حـــواس المـــتكلم ،أو هيئـــة المخاطب ، أو ظروف الحدث، لكنها هي في أساسها مجـــردة عـــن حـــواس المتكلم الخمس :

- " من ذلك قولُ العرب فى مَثَلٍ من أمثالهم: اللَّهُمَّ ضَبُعاً وذِئباً إذا كـــان يَدْعو بذلك على غنمِ رجُل ،وإذا سألتَهم ما يَعْنُون قالوا :اللهُمَّ اجْمَعْ أو اجعـــلْ فيها ضَبُعاً وذئبا " فحين يعقب سيبويه على ما سبق بقوله :" وكلُّهم يفسِّرُ ما يَنْوِى " [١٤٨]، فهذا يدل على خلاف في فهم المقصود من هـــذا الـــدعاء ،وأن معنى الدعاء يعود إلى نية المتكلم ، هل يقصد به خير و دعاء لسلامة الغنم ، أو يقصد به شر ودعاء على الغنم ، مما يدل على أهميـــة معرفـــة تفاصـــيل المقام.

- ومما عول بعض النحاة بعض القواعد النحوية علـــى نيـــة المـــتكلم لإثبات صحة قولهم ،وأرجعوها إلى السياق،ما فعل الكوفيون مثلاً في مـــسألة اللام:"اعلم أنك إذا قلت: زيد لينطلقن ،وعبد الله لأبوه أفضل منك ،وما أشـــبه ذلك،فإن البصريين يرفعونه بالابتداء ،ويجعلون اللام ،وما بعده خبره ،وإنمـــا جاز عندهم لما كان المبتدأ قد سبق إليه فرفعه ،وكان ما بعـــده خبـــرا عنـــه ،واللام مؤكدة له ،وأما الكوفيون فإن هذا عندهم غير جائز إلا مـــن كلامـــين كأنه يرتفع زيد باسم مثله في نية المتكلم ،ولم يجز أن يكون كلامـــا واحـــدا عندهم لأن اللام تقطع ما قبلها مما بعدها ،ولا يتصل بعضه ببعض فلذلك لـــم

([١٤٨])انظر سيبويه ،كتاب سيبويه ، مرجع سابق ، ج١/ص٢٥٥.

يكن ما بعدها خبرا عما قبلها ،وكذلك زيد إنه قائم ،وعبد الله هل قام ،لا يكون عندهم إلا على كلامين وهو عند البصريين جائز".[١٤٩]

- أيضا مما يرجع إلى نية المتكلم ،وعدم معرفة من وصله الكلام ما في عقل المتكلم ، مما يدفعه إلى وضع عدة احتمالات ما يلي :

- يظهر في معاني الحروف في سياق الكلام ، ومن ذلك :(لعل) فهي تكون للترجي ،وللإشفاق و في قوله تعالى : {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً } استظهر أبو حيان في البحر المحيط أنها في هذه الآية للإشفاق عليه – صلى الله عليه وسلم – أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم به ،وقال بعضهم إن (لعل) في الآية :للنهي ،وعلى هذا القول فالمعنى لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم وقيل هي :للاستفهام المضمن معنى الإنكار ،وإتيان لعل للاستفهام مذهب كوفي معروف ،ورجح صاحب أضواء البيان معنى (لعل) أن المراد بها في الآية النهي عن الحزن عليهم ،وعلل على ذلك مصراحا بما يدل على إدراكه لأهمية معرفة سياق الكلام بقوله :" وإطلاق (لعل) مضمنة معنى النهي في مثل هذه الآية أسلوب عربي يدل عليه سياق الكلام ،ومن الأدلة على أن المراد بها النهي عن ذلك كثرة ورود النهي صريحاً عن ذلك كقوله : {فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} ،وقوله : { وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ } ،وقوله : { فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } إلى غير ذلك من الآيات ".[١٥٠] ، كل ما سبق من احتمالات كان ورائها غياب المعنى المراد بسبب ذهنيته ، وتجرده .

---

(١٤٩)انظر أبا القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ، اللامات ، تحقيق : مازن المبارك ، ط٢(دمشق:دار الفكر ،١٩٨٥م)، ج١/ص١٥٦.

(١٥٠)انظر الشنقيطي ، أضواء البيان ، مرجع سابق ،ج٣/ص٢٠١- ٢٠٢.

- و من ذلك (كيف) ، فهي للاستفهام عن حال الشيء لا عن ذاته هذا أصلها في الوضع " لكن قد تعرض لها معان تفهم من سياق الكلام أو من قرينة الحال مثل معنى التنبيه والاعتبار وغيرهما". [١٥١]

- ومن ذلك استخدام الوصف مضافا أو غير مضاف مما يؤثر على الحكم الإعرابي ، فقولك : أنا قاتلٌ غلامك بغير إضافة، يختلف عن قولك : أنا قاتلُ غلامك بالإضافة، ويؤثر على معناها.

- " قال الكسائي: اجتمعت أنا وأبو يوسف القاضي عند هارون الرشيد ،فجعل أبو يوسف يذم النحو ،ويقول: وما النحو ،فقلت –وأردت أن أعلمه فضل النحو – :ما تقول في رجل قال لرجل: أنا قاتلُ غلامك ،وقال له: آخر أنا قاتلٌ غلامك ،أيهما كنت تأخذ به؟ قال: آخذهما جميعا .فقال له هارون :أخطأت ،وكان له علم بالعربية فاستحيا، وقال كيف ذلك ؟قال: الذي يؤخذ بقتل الغلام هو الذي قال: أنا قاتلُ غلامك بالإضافة؛ لأنه فعل ماض ،وأما الذي قال: أنا قاتلٌ غلامك بالنصب، فلا يؤخذ ؛لأنه مستقبل لم يكن بعد كما قال الله عز وجل : (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) فلولا أن التنوين مستقبل ما جاز فيه غدا " . [١٥٢]

فالكسائي حين نطق العبارة كان يقصد معنى ذهنياً مجرداً معيناً في عقله ، لم يعرفه المخاطب نفسه ، وإن كان قد وضع له وسيلة ،وقرينة مساعدة تتمثل في النطق بالتنوين ،وعدمه ، تساعده في الكشف عن ما في عقله.

([١٥١])انظر محمد بن بهادر الزركشي ، البرهان في علوم القرآن، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ،[د.ط](بيروت: دار المعرفة ،١٣٩١م) ، ج٤/ص٣٣٠.

([١٥٢])انظر الحموي ،معجم الأدباء ، مرجع سابق، ج٤/ص٩١ – ٩٢ .

- تظهر أهمية معرفة المقام في معرفة نية المتكلم أهو من الحقيقة أم من النسيان والخطأ ، كما وضحها سيبويه من خلال عدة مواضع في باب البدل والنعت،منها مثاله: مررت برجل حمار ؟ " مررتُ برجلٍ حمارٍ فهو على وجهٍ محالٌ وعلى وجهٍ حَسَنٌ ،فأَمَّا المحُالُ فأَن تَعنَى أنَّ الرجلَ حِمــارٌ ،وأَمــا الذى يَحسُن فهو أن تقول :مررتُ برجلٍ ثم تُبْدِلَ الحِمارَ مَكَانَ الرجل ،فتقــولَ :حِمارٍ إمَّا أن تكونَ غلِطتَ أو نَسِيتَ فاستَدركتَ ،وإمّا أن يَبْدُوَ لك أَن تُــضربَ عن مرورك بالرجل ،وتَجعلَ مكانه مرورَك بالحمار بعد ما كنــتَ أردتَ غيْــرَ ذلك"(١٥٣).

- حين تقرأ عبارة: ما أتاك رجل ، فما المقصود بها ؟ هل يقصد المتكلم ما أتاه رجل واحد أو أكثر ؟ أو رجل لا امرأة ؟ أو قوي وليس ضــعيف ؟ أو يقصد النفي العام لجميع ما سبق .

فمقصده إذن يعود إلى معرفة تفاصيل المقام ، وما هو المــراد فــي عقل السائل؟

" يقول الرجلُ: أتاني رجلٌ يريد واحداً في العدد لا اثنين، فيقال: ما أتــاك رجلٌ ؟أي :أتاك أكثرُ من ذلك ،أو يقول: أتاني رجلٌ لا امرأةٌ ،فيقال :ما أتــاك رجل أي امرأة أتتْك؟ ،ويقول :أتاني اليومَ رجلٌ ،أي: في قوّته ونفاذه ،فتقُول: ما أتاك رجلٌ؟ أي أتاك الضُّعفاءُ ،فإذا قال :ما أتاك أحدٌ ،صار نفياً عامّا لهــذا كلّه فإنما مجراه في الكلام هذا " (١٥٤).

---

(١٥٣)انظر سيبويه ،كتاب سيبويه ، مرجع سابق ،ج١/ص٤٣٩.

(١٥٤)انظر المرجع السابق ، ج١/ص٥٥.

– غياب المقام يؤدي إلى تعدد الاحتمالات في القاعدة النحوية ،ومن ذلك ماأورده الزمخشري : أنّ الُمغيرَة بن شُعْبَةَ ،قد رأى عُرْوَةَ بن مسعود، عَمَّه يكّلم النبي صلى الله عليه وسلم، ويتناول لحيته يمسّها، فقال: أمسك يدك عن لحية رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل ألاّ تصل إليك.فقال عروةُ: يا غُدَر! وهل غسلت رأسك من غدرتك إلاّ بالأمس؟ فظروف المقام المحيطة بالمقال التي ظهرت على وجه المغيرة ،وعلى حركاته، وغيرها ، استحضرها الراوي لهذه القصة مكتوبة ، ليحاول النحاة فهم المقصود من كلام المغيرة ، فهل يريد تهديد عمه بقطع يده، أي قبل ألاّ تصل يدك إليك؟ فيصبح فاعل الفعل " تصل "، ضمير يعود على " اليد " أم ينهاه باحترام،ويقصد: قبل ألاّ تصل لحية الرسول –صلى الله عليه وسلم– إليك، لأنه سيحول بين يد عمّه وبينها؟ و يصبح فاعل الفعل " تصل "، ضمير يعود على "اللحية"وهو ما رجحه الزمخشري، وما كانت هذه الاحتمالات إلا نتيجة لعدم معرفة نية المتكلم ، فالمؤثر إذن في هذه القاعدة مقام مجرد ذهني ، أشار النحاة إليه بطريق غير مباشر من خلال ما أوردوا من الاحتمالات المتعددة . [١٥٥]

– ومن ذلك إذا بلغك أن رجلاً من الناس قال لزوجته :(أنت طالق إن دخلت البيت) ، فهل أراد الرجل طلاقها ، أم يريد تحذيرها ؟هذا الأمر يعود لنية الرجل ، وماذا في داخل نفسه، فهذا عنصر ذهني داخلي ،وإن تلفظ به الرجل، فكيف خُرِّج من وجهة نظر النحاة ؟

النحاة كعادتهم في هذه الحال ، استحضروا الموقف نفسه ، فتسألوا كيف نطق الرجل (إن) بفتح الهمزة ، أم بكسرها ، فإذا نُطقت الهمزة مفتوحة

([١٥٥])انظر محمود الزمخشري ، الفائق في غريب الحديث ،تحقيق : علي البجاوي ،محمد إبراهيم ،ط٢ (لبنان : دار المعرفة ، [د.ت])،ج٣/ ص٥٥.

كان لها معنى ، يختلف عنها إذا نطقت مكسورة ، انظر معي ماذا قال الكسائي فيها؟

- " دخل أبو يوسف القاضي وقال عبد الله بن جعفر محمد بن الحسن على الرشيد ،وعنده الكسائي يحدثه، فقال : يا أمير المؤمنين قد سعد بك هذا الكوفي ،وشغلك ،فقال الرشيد: النحو يستفرغني ؛لأنني أستدل به على القرآن والشعر .فقال محمد بن الحسن أو أبو يوسف :إن علم النحو إذا بلغ فيه الرجل الغاية صار معلما والفقه إذا عرف الرجل منه جملة صار قاضيا ،فقال الكسائي :أنا أفضل منك لأني أحسن ما تحسن وأحسن ما لا تحسن ، ثم التفت إلى الرشيد وقال: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن له في جوابي عن مسألة من الفقه ، فضحك الرشيد ،وقال : أبلغت يا كسائي إلى هذا ،ثم قال لأبي يوسف: أجبه فقال الكسائي: ما تقول لرجل قال لا مرأته : أنت طالق إن دخلت الدار ،فقال أبو يوسف: إن دخلت الدار طلقت ،فقال الكسائي: خطأ إذا فتحت أن فقد وجب الأمر ،وإذا كسرت فإنه لم يقع الطلاق بعد ، فنظر أبو يوسف بعد ذلك في النحو " . [١٥٦]

وبالتالي يظهر لنا كيف أثر المقام في القاعدة النحوية التي ترتب عليها حكم فقهي فالمؤثر إذن في هذه القاعدة مؤثر مجرد يعود لنية المتكلم ، استعان النحاة بتفاصيل الموقف للكشف عن المعنى المراد.

الخاتمة: مما سبق يتضح لنا أهمية استحضار الحال ومعرفة تفاصيل المقام، وإنه لا يفهم المقال ، و لا تستقيم القاعدة النحوية إلا في ضوء معطيات المقام ، فالكلمة لا معنى لها خارج المقام الذي ترد فيه، فربما اتحد المدلول واختلف المعنى باختلاف المقام الذي قيلت فيه الرسالة اللغوية ،أو

([١٥٦])انظر الحموي ،معجم الأدباء ، مرجع سابق ، ج٤/ص٩١.

طبقا لأحوال المتكلمين ،ودلالة الحركة الجسمية ،والزمان، والمكان الذي قيلت فيه ، فالمقام يدخل ضمن التعبير المنطوق بطريقة ما ،ولذلك تنبه النحويون للغة المنطوقة، و تناولوا العلاقة بين المتكلم وهدفه الذي يرمي إليه ،والمخاطب وما فهمه ،و دائرة الظروف المحيطة بالحدث الكلامي ، وأثر ذلك في التقعيد والتوجيه النحوي المناسب ، مما يدل أنه كان لهم فضل السبق و الريادة في التنبه لدلالة المقام . وإن كان قد ظهر ذلك عندهم في صور ،وإشارات متناثرة في ثنايا ما أوردوه من نصوص لغوية في كتبهم ،أتضح بعد لم شملها ، وتفحصها ما كنا نحاول الوصول إليه ،وهو أن استحضار الموقف الذي قيل فيه النص اللغوي، له دور واضح في تقعيد القواعد النحوية. فسيبويه (ت١٨٠هـ)الذي يعد كتابه أول كتاب وصلنا في النحو أشار إلى تلك العناصر بطرق غير مباشرة من خلال ما أوردناه من مسائل ، ودل على ذلك الكلمات المتناثرة التي استخدمها في كتابه تشير إلى المقام وعناصره المرتبطة بالمتكلم ، وفهم المخاطب له . كل ذلك يؤكد أن القواعد حين قعدها كانت مأخوذة من لغة منطوقة في المقام الأول اعتمد فيها على الاستماع ،والمشاهدة ،وجمع ما ينطقه العرب من تراكيب متداولة ،ثم قام بتدوينها كتابة في كتابه لكي تصلنا ، وبالتالي يؤكد ما قلناه من أن اللغة ظاهرة اجتماعية ،أحاطت بها ظروف اجتماعية غير لغوية لا يدركها إلا من شاهدها ، وحضر ولادتها ، سمحت بتخلل أشكال للتعبير عن المراد كالاختصار أو الحذف أو استخدام تركيب معين له خصائص معينة دون تركيب آخر، أثرت في القاعدة النحوية في مقامات معينة. و مما يدل على مراعاتهم للمقام وطرق التعبير المتنوعة ،وضعهم الكتب الكاشفة عن أساليب البيان ، وقد أشرنا فيما ذكرنا من بيان أهمية المقام ، إلى أهمية الإشارات والإيماءات في بيان نصف الكلام ، ومعظم ما تحدثنا عنه كانت أصوله مستقاة من كتاب الجاحظ (ت٢٥٥هـ) المسمى البيان والتبيين ،الذي أطلق فيه العبارة

المشهورة (لكل مقام مقال) ،وفصل فيه طرق البيان ، وكيف يكون المقال مطابقا للمقام ،ومطابقا للفصاحة والبلاغة العربية، والذي كان له أثر فيمن جاء بعده ،من القدماء ممن حرصوا على إتباع طرق البيان المناسبة ؛للكشف عن المراد ،و قد كانت إشارات الجاحظ الصريحة عن دلالة البيان من النقاط الأساسية التي أشارت صراحة حول ما يدور عليه بحثنا . و ما بيناه في المقدمة و مبحث أهمية المقام ،وما ذكرنا من أمثلة تدل أيضا على تنبه ابن جني (ت ٣٩٢هـ) في كتابه الخصائص ، لأهمية الحال المشاهدة لتعليل ما ورد عن العرب مخالفا لقواعد النحاة ، وخاصة ما ورد عنهم من الحذف . فحين يتحدث علماء من القرن الأول ،والثاني ،و الثالث الهجري عن الإشارة ، والحال ،واعتبارها من طرق البيان غير اللفظية ، فإن ذلك يثبت أحقية السبق لعلمائنا العرب القدماء في تنبهم للعناصر الخارجية التي تؤثر في بناء الكلام ،سابقين بها علماء اللغة الغربيين التي تناولوها تحت مسمى النظرية السياقية،أو دلالة الإشارات الجسمية ،أو أي مسمى آخر ، وإن كان هذا البحث لم يتسع من ذلك كله إلا إلى إشارات، يستحق بعد ذلك التوسع فيه.

فهرس المصادر والمراجع

- الأبشيهي ، شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح (١٩٨٦م)المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق : مفيد محمد قميحة ،ط٢ ، بيروت : دار الكتب العلمية.

- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم (١٩٩٥م) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،[د.ط]، بيروت :المكتبة العصرية.

- أحمد، نوزاد حسن(١٩٩٦م) المنهج الوصفي في كتاب سيبويه ، ط١، ليبيا:منشورات جامعة قاريونس.

- الأزهري ، خالد [د.ت]شرح التصريح على التوضيح ،[د.ط] ،مصر:دار إحياء الكتب العربية.

- الأفريقي ،محمد بن مكرم بن منظور [د.ت] لسان العرب ،[د.ط]،بيروت : دار صادر .

- الأصبهاني ، أبو الفرج [د.ت] الأغاني، تحقيق : علي مهنا وسمير جابر ،[د.ت] ، لبنان: دار الفكر .

- الأصفهاني ،أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (١٩٩٩م)محاضرات الأدباء ومحاورات الشعرء والبلغاء ، تحقيق : عمر الطباع ،[د.ط] ، بيروت: دار القلم.

- الأفغاني ،سعيد (١٩٩٤م) في أصول النحو ، [د.ط] ، [د.م]:مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية

- الألوسي ، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود [د.ت] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ،[د.ط]، بيروت: دار إحياء التراث العربي .

- الأندلسي ، أحمد بن محمد بن عبد ربه (١٩٩٩م) العقد الفريد ،ط٣، بيروت : دار إحياء التراث .

- الأنصاري ،جمال الدين ابن هشام (١٩٧٩ م) ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٥ ، بيروت : دار الجيل .

- الأنصاري جمال الدين ابن هشام(١٩٨٥م) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق : مازن المبارك ومحمد علي حمد الله،ط٦، دمشق: دار الفكر.

- بالمر، ف. ر.(١٩٩٥ م) علم الدلالة " إطار جديد"، ترجمة: صبري إبراهيم السيد ،[د.ط] ،الإسكندرية :دار المعرفة الجامعية.

- بشر،كمال (١٩٩٤م) علم اللغة الاجتماعي"مدخل" ، [د.ط] ، [د.م] : دار الثقافة العربية.

- التلمساني ، أحمد بن محمد المقري(١٣٨٨هـ) نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب،تحقيق : إحسان عباس، [د.ط] ،بيروت: دار صادر.

- الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (١٩٨٣م) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق: مفيد محمد قمحية ، ط١ ،بيروت: دار الكتب العلمية .

- البغدادي ، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب أبو بكر (١٤٠٣هـ) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، تحقيق : محمود الطحان ،[د.ط]،الرياض: مكتبة المعارف.

- البغدادي ،عبد القادر بن عمر(١٩٩٨م) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: محمد نبيل طريفي وأميل بديع اليعقوب ، ط١ ، بيروت: دار الكتب العلمية .

- البوشيخي ، الشاهد (١٩٩٥م)، مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين ، ط ٢ ،الكويت : دار القلم للنشر والتوزيع .
- التفتازاني ، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله(١٩٨١م) شرح المقاصد في علم الكلام ،ط١ ،باكستان: دار المعارف النعمانية.

- الجاحظ ،أبو عثمان عمرو بن بحر (١٩٧٥م) البيان والتبيين، تحقيق :عبد السلام محمد هارون ،[د.ط] ، القاهرة :مكتبة الخانجي.
- الجرجاني ،عبد القاهر [د.ت] أسرار البلاغة ،[د.ط]، [د.م]:[د.ن].

- الجرجاني ،عبد القاهر(١٩٩٥م) دلائل الإعجاز ، تحقيق : التنجي ،ط١، بيروت : دار الكتاب العربي .
- ابن جني ، أبو الفتح عثمان [د.ت] الخصائص ، تحقيق : محمد النجار ، [د.ط]،بيروت: عالم الكتب .
- الحاج ، ابن أمير (١٩٩٦م) التقرير والتحرير في علم الأصول،[د.ط]،بيروت: دار الفكر .
- حبلص ، محمد يوسف (١٩٩١م) البحث الدلالي عند الأصوليين ،ط١ ، [د.م]: مكتبة عالم الكتب .

- الحراني ،أحمد عبد الحليم بن تيمية أبو العباس [د.ت] كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي ، ط٢([د.م] :مكتبة ابن تيمية .
- حسان، تمام (١٩٧٤ م) مناهج البحث في اللغة ،ط ٢ ، الدار البيضاء: دار الثقافة.
- الحموي ، تقي الدين أبي بكر علي ابن حجة (١٩٨٧م) خزانة الأدب وغاية الأرب ، تحقيق : عصام شقيو ،ط١، بيروت : دار ومكتبة الهلال.
- الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي(١٩٩١م) معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ،ط١ (بيروت ،دار الكتب العلمية).
- الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري (١٤٠٦هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط و محمود الأرناؤوط، ط١ ،دمشق : دار بن كثير.
- حيدر ، فريد عوض [د.ت] سياق الحال في الدرس الدلالي "تحليل وتطبيق" ،[د.ط] ،مصر : مكتبة النهضة المصرية .
- خفاجي ،محمد عبد المنعم وآخرون [د.ت] الأسلوبية والبيان العربي ،[د.ط] ، [د.م] :الدار المصرية اللبنانية.
- الخوجة، محمد الحبيب(٢٠٠٤م) محمد الطاهر بن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة الإسلامية ، [د.ط] ، [د.م] :الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع .
- الخولي ، محمد علي(١٩٨٢م)معجم علم اللغة النظري، ط١ ،[د.م] : مكتبة لبنان.

- الدمشقي ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي (١٩٩٨م) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ،تحقيق : علي بن محمد الدخيل الله ،ط٣ ،الرياض: دار العاصمة.

- الدمشقي ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي (١٩٩٧م) أحكام أهل الذمة تحقيق : يوسف أحمد البكري – شاكر توفيق العاروري ،ط١ ، الدمام – بيروت: رمادى للنشر – دار ابن حزم للنشر .

- رضوان، محمود (١٩٧٦م)نظرات في اللغة، ط١، بني غازي:[د.ن] .
- الرماني ، أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله [د.ت] رسالة الحدود ، تحقيق : إبراهيم السامرائي ، [د.ط] ،عمان : دار الفكر.

- الرماني ، أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله [د.ت] رسالة منازل الحروف ، تحقيق : إبراهيم السامرائي ، [د.ط] ،عمان : دار الفكر.

- الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني[د.ت] تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق : مجموعة من المحققين ،[د.ط]،[د.م]: دار الهداية .

- الزرعي، محمد بن أبي بكر أيوب أبو عبد الله (١٩٩٤م) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، تحقيق : عمر بن محمود أبو عمر ، ط٢، الدمام : دار ابن القيم .

- الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر [د.ت] الفائق في غريب الحديث ،تحقيق : علي محمد البجاوي ،محمد أبو الفضل إبراهيم ،ط٢ ، لبنان : دار المعرفة .

- الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر(١٩٩٣م) المفصل في صنعة الإعراب ، تحقيق : علي بو ملحم ،ط١، بيروت : مكتبة الهلال .

- الزركشي ، محمد بن بهادر بن عبد الله أبو عبد الله(١٣٩١م) البرهان في علوم القرآن، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ،[د.ط]، بيروت: دار المعرفة .

- الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر (١٩٧٩م) أساس البلاغة ،[د.م] : دار الفكر .

- السبكي ، تاج الدين بن علي بن عبد الكافي(١٤١٣هـ) طبقات الشافعية الكبرى،تحقيق : محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو ، ط٢ ([د.م]:هجر للطباعة والنشر والتوزيع).

- السعران ، محمود [د.ت] علم اللغة " مقدمة للقارئ العربي" ، [د.ط] ،[د.م] : دار الفكر العربي .

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر(١٤٠٣هـ) الأشباه والنظائر ،ط١، بيروت : دار الكتب العلمية.

- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ،[د.ت] ، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، تحقيق : عبد الحميد هنداويَ، [د.ط] مصر : لمكتبة التوفيقية .

- سيبويه ، أبو البشر عمرو بن عثمان بن قنبر (د.ت) كتاب سيبويه ،تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،ط١، بيروت: دار الجيل.

- السكاكي ، أبو يعقوب يوسف (١٩٨٢م) مفتاح العلوم ، [د.ط] ، بغداد : مطبعة دار الرسالة .

- الشافعي ، أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله (١٩٩٥م) تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل ، تحقيق : محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري،[د.ط]، بيروت: دار الفكر.

- الشافعي ، محمد بن درويش بن محمد الحوت البيروتي(١٩٩٧م) أسنى المطالب في أحاديث مختلفة ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ،ط ١ ، بيروت: دار الكتب العلمية .

- الشافعي ، محمد بن إدريس أبو عبد الله (١٩٣٩م) الرسالة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر [د.ط] ، القاهرة :[د.ن].

- الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني (١٩٩٥م) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات ،[د.ط]،بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر.

- الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد (١٩٧٣م) نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار ،[د.ط] ، بيروت : دار الجيل .

- صفوت، أحمد زكي [د.ت] جمهرة خطب العرب ،[د.ط]، بيروت : المكتبة العلمية .

- صفوت، أحمد زكي [د.ت] ذيل جمهرة خطب العرب ،[د.ط]، بيروت : المكتبة العلمية .

- الطلحي ،ردة الله (١٤٢٤هـ) دلالة السياق، ط ١ ، مكة المكرمة : معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى ، سلسلة الرسائل الموصى بطبعها رقم (٣٣) .

- العامري ، أحمد بن عبد الكريم بن سعودي الغزي (١٤١٢ هـ) الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث ، تحقيق : بكر عبد الله أبو زيد ، ط١ ،الرياض: دار الراية .

- عبد اللطيف ، حماسة (١٩٧٩م) الضرورة الشعرية، ،ط١، القاهرة: دار العلوم .

- عبد اللطيف، محمد حماسة (١٩٨٣م) النحو والدلالة " مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي "،ط١ ، القاهرة،[د.ن] .

- العسقلاني ، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل[د.ت] فتح الباري شرح صحيح البخاري ، تحقيق : محب الدين الخطيب ،[د.ط] ، بيروت: دار المعرفة.

- العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل(١٩٨٦م) الصناعتين الكتابة والشعر ، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم [د.ط]،بيروت: المكتبة العصرية .

- العمادي ، أبو السعود محمد بن محمد[د.ت] إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، [د.ط] ، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- عمر ،أحمد مختار (١٩٨٨ م) علم الدلالة، ط٥،القاهرة :عالم الكتب .

- عيسى ، أحمد بن إبراهيم (١٤٠٦ هـ) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم ، ط٣، بيروت : المكتب الإسلامي.

- الغزالي ، أبو حامد(١٩٨٥م) قواعد العقائد ، تحقيق : موسى محمد علي ،ط٢، لبنان : عالم الكتب .

- ابن فارس، أبي الحسين أحمد (١٩٩٩م) معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،ط ٢ ، بيروت : دار الجيل .

- قباوة ،فخر الدين(٢٠٠٢م) التحليل النحوي أصوله وأدلته ،[د.ط] ،مصر : الشركة المصرية العالمية .

- القزويني ، الخطيب (١٩٩٨م) الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق : بهيج غزاوي ،ط٤ ،بيروت :دار إحياء العلوم .

- القلقشندي ، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (١٩٨١)صبح الأعشى في كتابة الإنشا، تحقيق: عبد القادر زكار ،[د.ط]، دمشق: وزارة الثقافة .

- القنوجي ، أبو الطيب السيد صديق حسن (١٩٧٨ م) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق : عبد الجبار زكار ،[د.ط] ،بيروت ، دار الكتب العلمية.

- كشك ،أحمد(٢٠٠٦) من وظائف الصوت اللغوي "محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي "، ط١ ، القاهرة :دار غريب .

- الكفومي ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني (١٩٩٨م) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، تحقيق : عدنان درويش ،و محمد المصري ،[د.]، بيروت: مؤسسة الرسالة .

- الكلبي ،محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي (١٩٨٣م)كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ،ط٤ ،لبنان: دار الكتاب العربي.

- المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد [د.ط] المقتضب ،تحقيق : محمد عبد الخالق عظيمة ،[د.ط]، بيروت: عالم الكتب.

- المقدسي ، محمد بن طاهر (١٩٩٦م) ذخيرة الحفاظ ،تحقيق : عبد الرحمن الفريوائي ، ط١ ، الرياض: دار السلف .

- أبو موسى ،محمد محمد (١٩٩٨ م) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني ،ط١ ، القاهرة : مكتبة وهبة .

- الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد ،[د.ت] مجمع الأمثال ، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد،[د.ط]،بيروت : دار المعرفة.

- نكري ، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد (٢٠٠٠م) دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ، تحقيق وتعريب: حسن هاني فحص، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية .

- نهر، هادي(١٩٨٨م)علم اللغة الاجتماعي عند العرب ،ط١، بيروت: دار الغصون .

- هواش ،عباس أحمد (١٩٩٩م) زيادة اللفظ لزيادة المعنى وأثرها في الكلمة والجملة العربيتين ، بيروت: الجامعة الأمريكية .